مطبوعات كتابى

يصدرها حلمى مراد

الترجمة الكاملة
للقصة الخالدة

نيتوتشكا



للروائى الروسى الكبير
يدور دستويفسكى

فيدور دستويفسكي

نيتوتشكا



NITOTCHKA

PAR

FEDOR DOSTOIVSKY

الثمن ١٢ قرشا


المزيد من القوة
لا تتأثر لزوجته بتغير درجة الحرارة
لا يترك أية رواسب معدنية
له جميع مميزات زيوت الخدمة الشاقة
يحقق الوفر في استهلاك البنزين
والصيانة وعمر المحرك
شل
X-100
متعدد الدرجات
اعتمد دائما على منتجات وخدمة شل

مطبوعات

كتابي

الترجمة الكاملة لشوامخ الكتب العالمية

يصدرها : حلمى مراد

الكتاب الواحد والستون

نيتوتشكا

ترجمة : سامى الدروبى

الإدارة : عمارة الجندول – ١٤ شارع ٢٦ يوليو – بالقاهرة

تليفون ٥٩٥٥٦

مجموعة كتـــابى

(الكتاب الشهرى لتلخيص الكتب العالمية)

صدر منها ستة وتسعون كتابا ، يضاف اليهـــا كتاب جـديد فى اول كل شهر .

مطبوعات كتابى

(الترجمة الكاملة الأمينة لشوامخ الكتب العالمية)

صدر منها واحد وستون كتابا (و مجلدان خارج السلســلة يحتويان على الترجمة الكاملة لقصة « دكتور جيفاجو ») ، وتطلب قائمة بأسماء الكتب جميعا من الادارة .

الاشتراكات

• تطلب الاعداد السابقة من كل من المجموعتين من :
ادارة « كتابى » : ١٤ شارع ٢٦ يوليو (فؤاد سابقا) بالقاهرة
• الاشتراكات عن ١٢ عددا من كتابى فى ج.ع.م والسودان والمملكة السعودية والاردن ولبنان وليبيا والعراق ١٤٠ قرشا سنويا خالصة اجر البريد المسجل ، وما عداها من البلاد العربية الاخرى والبلاد الاجنبية فالاشتراك السنوى ١٨٠ قرشا سنويا خالصة اجر البريد المسجل .
ولمن شاء أن ترسل له الاعداد بالبريد الجوى المسجل ، أن يدفع فرق الرسوم .
• ترسل قيمة الاعداد والاشتراكات فى مصر باذن بريد عـادى . وللمشتركين فى البلاد الاخرى أن يرسلوا القيمة بشيك على احد بنوك القاهرة ، او تحويلات مصرفية ، او كوبونات بريد دولية فئة ٤٠ مليما ، على ان يتحقق المرسل من امكان صرفها فى مصر . علما بأن سعرها فى مصر ٣٧ مليما . ومن الممكن لمن فى السودان ارسال القيمة بحــوالة بريدية .

- ١ -

لا اتذكر ابى . فقد كنت فى الثانية من عمرى حين مات . وتزوجت امى مرة أخرى . الا أن زواجها الثانى هذا ، رغم انه قد قام على حب ، قد سبب لها كثيرا من الالام . كان زوج امى موسيقيا ، لقى مصيرا غريبا ، وكان بين جميع من عرفت من الناس أغربهم واشذهم . وكان أثره فى مشاعرى الاولى ابان الطفولة من القوة بحيث ألقى ظله على حياتى كلها بعد ذلك . ولابد لى ان أذكر هنا سيرة حياته لتكون قصتى مفهومة . وكل ما سأرويه عنه انما عرفته بعد ذلك من «ب» ، العازف على الكمان ، الذى كان فى شبابه رفيق عمى (زوج أمى) وصديقه الحميم .

كان عمى يدعى «يافيموف» . وقد ولد فى أرض أحد المالكين الاغنياء جدا . وكان أبوه موسيقيا فقيرا انتهى به المطاف الى هذه الارض ، بعد تغرب طويل ، وانخرط فى جوقة هذا المالك الفنى . وكان يعيش حياة رخية ، وكان مولعا بالموسيقى الى حد الهوى الشديد ، حتى ليروى عنه أنه ، وهو الذى لم يكن يترك أرضه يوما ، ولو للذهاب الى موسكو ، قرر ذات يوم ، على حين غرة ، أن يسافر الى مدينة من مدن المياه فى الخارج يقضى بضعة اسابيع فحسب ، لا لشىء الا ليسمع عازفا على الكمان شهيرا قالت الجرائد يومذاك انه سيحيى هنالك ثلاث حفلات .

وكان يملك جوقة ممتازة يقف عليها جميع موارده تقريبا . وقد انخرط عمى فى هذه الجـوقة عازفا على الكلارينت . وكان فى الثانية والعشرين من عمره حين صـــادق شخصا عجيبا . لقد كان يعيش فى تلك المقاطعة نفسها كونت غنى جـدا يدمر ثروته لينفق على مسرح أقامه فى بيتـه . وقد طرد هذا الكونت رئيس جوقتـــه ، وهو ايطالى ، لسوء سلوكه .

وكان رئيس الجوقة هذا انسانا سىء السلوك حقا ، فما كاد يطرد حتى فقد كل كرامة ، فأخذ يدمن على الشراب بل أخذ يتسول ، ولم يعد فى وسعه أن يجد عملا فى أى مكان بهذه المنطقة . هذا الرجل هو الذى صادقه عمى . ولم يلحظ أحد فى عمى أى تغير يمكن أن يعزى الى تأثـير رفيقه فيه ، حتى أن المالك الذى منعـــه فى أول الامر من معاشرة الايطالى انتهى أخيرا الى غض النظر عن ذلك . ثم مات الايطالى بغتة ، ففى ذات صباح اكتشف بعض الفلاحين جثته فى حفرة أحد السدود . وبين التحقيق الذى تم فى هذا الامر أن الرجل انما مات بالسكتة القلبية . وكان كل مايملكه الايطالى محفوظا عند عمى الذى لم يلبث أن بين أنه صاحب الحق فى تركته ، اذ أبرز ورقة كتبها الايطالى بخط يده ، يذكر فيها أن « يافيموف » هو وريثه . وكانت التركة تتألف من بدلة سوداء عنى المتوفى بالاحتفاظ بها لانه كان يأمل دائما أن يجد عملا ، ومن كمان لايدل مظهره على أنه ذو قيمة كبيرة . ولم يعترض أحد على هذا الميراث . ولكن

بعد مدة قصيرة جاء العازف الاول على الكمان لدى الكونت، جاء الى المالك يحمل كتابا من سيده ، وفى هذا الكتاب يرجو الكونت بل يلح فى الرجاء أن يبيعه يافيموف الكمان الذى تركه الايطالى ، ويظهر رغبته الشديدة فى الحصول على هذا الكمان لجوقته ، ويقدم ثمنا له ثلاثة آلاف روبل ، ويضيف الى هذا أنه قد أرسل يستدعى يافيموف غير مرة ، ليعقد الصفقة بينه وبينه شخصيا ، الا أن يافيموف كان يرفض دعواته هذه فى عناد . ويؤكد الكونت فى كتابه أن الثمن الذى يقدمه يساوى قيمة الآلة ، وانه لاينوى أن يخدع أحدا ، وانه يعتبر رفض يافيموف اهانة له ، وان يافيموف، أخيرا ، مخطىء فى الشك فيه ، فهو لا يريد أبدا أن يستغل بساطته وجهله . وخلاصة ذلك كله أن الكونت يطلب أن يرد يافيموف الى صوابه .

واستدعى المالك زوج أمى على الفور وقال له :

ــ لماذا لا تريد ان تبيع كمانك ؟ انك لست فى حاجة اليه. ثم ان الكونت يقدم لك ثلاثة آلاف روبل ، وهو الثمن الذى يستحقه الكمان . وتخطىء ان ظننت انك تستطيع أن تبيعه بأكثر من ذلك . ان الكونت لا يحاول أن يخدعك أبدا .

فأجاب يافيموف بأنه لن يذهب الى الكونت من تلقاء نفسه ، وانه ان أكره على الذهاب اليه ، فسيذعن لارادة سيده ، لكنه لن يبيع كمانه . على أن سيده يستطيع أن ينتزع منه الآلة ، ان كانت تلك مشيئته !

وواضح أن جوابا من هذا النوع لابد أن يضرب على

وتر حساس فى نفس المالك . لقد كان هذا المالك يزهو دائما بأنه يعرف كيف يعامل موسيقييه ، وكان يعدهم جميعا ، من أولهم الى اخرهم ، فنانين حقيقيين ، وكان يعتقد أن جوقته ، بفضلهم ، لاتفوق جوقة الكونت فحسب ، بل تضارع جوقات العواصم .

فقال له المالك :

ـ حسنا . سأبلغ الكونت انك لاتريد أن تبيع كمانك . سأبلغه أن هذا هو رأيك ، وأنك تشعر أن لك الحق كله فى أن تبيع كمانك أو أن لا تبيعها ، أليس كذلك ؟ ولكن قل لى ـ انا الذى أطرح عليك السؤال الآن ـ ما فائدة احتفاظك بهذه الكمان ؟ ان آلتك هى الكلارينت ، وانت لا تجيد العزف حتى على الكلارينت . تنازل لى عن هذا الكمان ، فأعطيك ثلاثة آلاف روبل . (من ذا الذى كان يظن أن هذه آلة ذات قيمة ؟!) .

فابتسم يافيموف ، وأجاب :

ـ كلا يا سيدى ، لن أتنازل عن الكمان ، لكنك تستطيع طبعا أن ..

ـ اننى لا أكرهك على شيء . اترانى اعذبك لاحملك على مالا تريد ؟ !

قال المالك ذلك فى صراخ غاضب ، خاصة وان المشهد كان يجرى على مرأى من « عازف » الكونت الذى يستطيع ان يستنتج من ذلك ان حظ الموسيقيين لدى المالك ليس بالحظ السعيد . وأضاف المالك حانقا :

ـ اذهب . ياناكر الجميل ، ولا أحب أن أراك بعد الان ابدا . **ماذا كنت لولاى ، انت وآلتك ، الكلارينت ، التى لا تكاد تعرف العزف عليها؟** انت هنا تأكل ، وتشرب ، وتلبس ، وتتقاضى أجرا ، وتعيش كما يعيش الوجهاء من النـــاس . أنت فنان ، ثم تأبى أن تفهم هذا كله وأن تقدره حق قدره . اذهب . لقد هيجب عضبى .

لقد كان المالك يطرد هكذا جميع من يثور عليهــم ، لانه كان يخشى نفسه ، ويخاف ثورات غضبه . وما كان ليحب أبدا أن يقسو فى معاملة «فنانيه» كما كان يسمى موسيقييه .

وظن أن الامر قد انتهى ، مادامت الصفقة لم تتم . ولكن ها هو عازف الكونت ، بعد شهر من ذلك ، يخلق لعمى ، من تلقاء نفسه فى هــذه المرة لا بوحى من الكونت ، مشـــكلة جديدة . وهى الآن مشكلة رهيبة . انه يشى بزوج أمى على أنه قاتل الايطـــالى ، وعلى أنه أقدم على قتــله أملا فى الاستيلاء على ميراث ضخم ، ويؤكد أن الوصية انما كتبت بضغط واكراه ، وانه مستعد للبرهان على ذلك بشهود . وعبثا حاول الكونت والمالك أن يدافعـا عن زوج أمى وأن يتوسلا الى متهمه ، بكل الاساليب ، أن يكف عن اتهامه ، فقد أصر على الاتهام اصرارا قويا لم يحد عنه . ثم بينا له أن تشريح جثــة المتوفى ، رئيس الجــوقة ، قد تم وفقا للأصول ، وان وشايته تخالف البداهة ، وانه انما اقدم على ما اقدم عليه حبا فى الانتقـــام أو بداعى الغضب ، لانه لم يحصل على الآلة التى كان يريد الحصول عليها (من أجله

اذن كان يريد الكونت أن يشترى الالة) . لكن الموسيقى ظل متمسكا برأيه ، وأخذ يقسم أنه على حق ، وأن السكتة القلبية لم يكن سببها السكر بل السم ، وطالب باجراء تحقيق جديد . وكان من الجد فى اتهامه بحيث لم يكن بد من استئناف التحقيق : فقبض على يافيموف وأودع سجن المدينة . وبدىء تحقيق جديد شغل المنطقة كلها واثار اهتمامها الشديد ، وانتهى الى الحكم على الكمانى بتهمة الوشاية الكاذبة .. ومع ذلك فانه ظل مصرا على رأيه، وظل يدافع عن هذا الرأى حتى النهاية . لكنه اضطر أن يعترف بأنه لم يكن يملك من الادلة غير ما أمده به خياله ، وبأنه ألف المسألة كلها من شكوكه واستنتاجاته . ومع ذلك ، ورغم أن اختتام التحقيق برهن على براءة يافيموف برهانا قاطعا ، **فقد ظل متهمه على يقين من أن يافيموف هو قاتل المسكين ، رئيس الجوقة ، وانه ربما لم يستعمل السم فى قتله ، لكنه قتله بوسيلة من الوسائل !** .. ولم يمكن تنفيذ الحكم الذى أصدر على العازف بالسجن ، فقد أصيب فجأة بنزيف فى الدماغ . ففقد عقله ، ثم مات فى مستشفى السجن !

وكان المالك ، طوال المدة التى استغرقتها هذه القضية، يعامل عمى أكرم المعاملة . وقد أتعب نفسه من أجله كأنه ابنه : مضى يراه غير مرة ليواسيه ، وأعطاه مالا ، وأتى له بأحسن سيجاره ، منذ علم أن يافيموف يحب التدخين ، ولما ظهرت براءة يافيموف أقام حفلة للجوقة كلها .

لقد كان يعتبر قضية يافيموف قضية الجوقة كلها ، لأنه كان يحترم الاخلاق الحسنة التى يتمتع بها موسيقيوه، احترامه لمواهبهم ؛ بل وأكثر من ذلك .

.. وانقضت على ذلك سنة ، حين شاع فى المنطقة أن عازفا شهيرا على الكمان ، وهو فرنسى ، قد وصل الى مركز المنطقة ، وأنه ينوى اقامة بضع حفلات موسيقية . ولم يلبث المالك أن أخذ يسعى سعيا حثيثا ليدعوه الى بيته ، وكان له ما اراد ، فوعده الفرنسى بالمجىء ، ووزعت الدعوات على جميع سكان المنطقة تقريبا ، وكان كل شىء معدا لاستقبال الفرنسى ، حين وقع فجأة مالم يكن فى الحسبان .

ففى ذات صباح ، علم ان يافيموف قد اختفى دون أن يترك أثرا يدل عليه !.. وأخذوا يبحثون عنه دون أن يظفروا بطائل . لقد أصبحت الجوقة فى وضع حرج ، اذ تعوزها الآن كلارينت . ولكن بعد ثلاثة أيام تلقى المالك من الفرنسى رسالة يتحلل فيها من وعده بالمجىء ، ويقول ، بلهجة متعالية وان تكن مقنعة ، انه سيكون بعد الآن شديد الحذر فى علاقاته مع أشخاص يملكون جوقة موسيقية ، **ويبدى أسفه على أن موهبة عظيمة تعيش تحت رحمة انسان عاجز عن تقديرها حق قدرها ، ويذكر أن مثال يافيموف ، وهو الفنان الموهوب وأحسن عازف على الكمان رآه فى روسيا ، أوضح برهان على صدق كلامه .**

صعق المالك لدى قراءة هذه الرسالة . انه يطعن فى الصميم . كيف ؟ كيف يمكن أن يفترى عليه يافيموف ،

يافيموف نفسه ، هذا الذى عنى بأمره كل تلك العناية ، وأسدى اليه كل ذلك المعروف ، فاذا هو يقول فيه هذا الكلام السيء لفنان أوروبى يحرص هو على حسن رأيه فيه أشد الحرص ؟

ثم ان الرسالة عجيبة من ناحية أخرى . ان الفرنسى يدعى أن يافيموف ، وهو الفنان الموهوب ، انما هو عازف على الكمان لم يعترف له بمواهبه ، وأكره على العزف على آلة أخرى . وبلغ تأثر المالك بهذه الرسالة أنه قرر الذهاب فورا الى المدينة للقاء الفرنسى . لكنه فى تلك اللحظة نفسها تلقى كلمة من الكونت يدعوه فيها الى الذهاب اليه ، دون تأخر ، ويذكر له أنه على علم بالأمر ، وأن الفنان الفرنسى هو الآن فى بيته مع يافيموف ، وانه قد استاء من وقاحة يافيموف وأكاذيبه ، قد أصدر أوامره بمنعه من الخروج . وأضاف الكونت الى ذلك أن لابد من مجيء المالك اليه ، وأن الاتهام الذى لفقه يافيموف قد أثر فيه شخصيا ، وان الأمر أخيرا يبدو له من الخطورة بحيث لابد من توضيحه بأسرع ما يمكن .

واسرع المالك فمضى الى الكونت ، فلقى عنده الفرنسى ، واذ ذاك شرح له المالك قصة يافيموف من أولها الى آخرها ، وأضاف أنه لم يكن ليدور فى خلده ان هذا الرجل يتمتع بموهبة رفيعة لأنه ، خلافا لما يقول الفرنسى ، قد كان وهو عنده عازفا سيئا على الكلارينيت ، وأن هذه هى المرة الأولى التى يسمع فيها أن الموسيقى الذى هجره عازف على

الكمان ، واضاف الى ذلك أيضا أن يافيموف لم يكن عبدا ، وانه كان يتمتع بحرية تامة ، وانه كان فى وسعه دائما أن يتركه لو كان يسىء اليه حقا !

وصعق الفرنسى من الدهشة . ونودى على يافيموف الذى تبدلت معالم وجهه حتى ما يكاد يعرف ، فاتخذ موقف التعالى ، واخذ يجيب فى سخرية واستهزاء ، ويؤكد صدق ما أسلف للفرنسى . وقد أثار ذلك حفيظة الكونت الى ابعد حد ، فقال بلا لف ولا دوران ان يافيموف حقير ، وانه واش كذاب ويستحق أرذل العقاب. فأجابه عمى قائلا :

ـ مهلا يا صاحب السعادة ، فان لى معك شأنا منذ مدة طويلة ، واننى لأعرفك حق المعرفة ، فبفضلك اوشكت أن يحكم على بتهمة القتل . انى لأعلم من ذا الذى دفع « الكسيس نيكيفوريتش » ، الموسيقى الذى كان يعمل عندك ، الى الوشاية بى !

وخرج الكونت عن طوره لدى سماعه هذا الاتهام الفظيع ، وكان هنالك ، عرضا ، موظف جاء لبعض الامور ، فلما سمع هذا الكلام قال انه لا يمكن ان يترك هذا كله دون توضيح ، وان وقاحة يافيموف المهينة تستند الى تهمة باطلة وضيعة ، وانه يرجو ان يسمح له بمحاسبة هذا الشخص على الفور فى البيت نفسه . واظهر الفرنسى استياء شديدا وقال انه لا يفهم هذا النكران للجميل . فأجاب عمى غاضبا بأنه يفضل أن يحاكم ، وأن عودة أخرى الى القضاء آثر عنده من الحياة التى عاشها حتى ذلك الحين

فى جوقة المالك ، وهى حياة لم يستطع ان يتركها قبل الآن لفقره الشديد. وما أن فرغ من كلامه حتى أوقفوه وقادوه الى خارج الصالة ثم سجنوه فى غرفة بعيدة ، على أن يقودوه فى اليوم التالى الى المدينة .

***

وفى حوالى منتصف الليل ، رأى السجين باب غرفته يفتح ، ورأى المالك يدخل مرتديا ملابس البيت ومحتذيا نعل البيت وممسكا بيده قنديلا . كان واضحا انه لم يستطع أن ينام ، وأن عذابا مبرحا أخرجه من سريره فى مثل هذه الساعة ، ولم يكن يافيموف نائما ، فجعل يحدق فيه دهشا . ووضع المالك قنديله ، وجلس الى مقعد أمام يافيموف ، وقد ظهرت عليه علائم التأثر العميق .

— «ياجور» ، لماذا أهنتنى هكذا ؟

ولم يجب يافيموف . وكرر المالك سؤاله . وكان كلامه يختلج بعاطفة عميقة ، بغم غريب !

وأخيرا أجاب عمى قائلا ، وهو يقوم بحركة تشير الى العجز :

— لا ادرى يا سيدى لماذا تجرأت عليك هكذا . لا شك ان الشيطان هو الذى أضلنى . لا أدرى انا نفسى ما الذى دفعنى الى هذا كله . على أن حياتى عندك لم تكن بالحياة يا سيدى ، لم تكن بالحياة .. هذا هو السبب فى ان الشيطان تملكنى ودفعنى الى ما دفعنى اليه .

فأجاب المالك :

ـ ياجور ، عد الى ، سأنسى كل شيء ، سأغفر كل شيء ، اسمع : ستكون العازف الأول على الكمان فى الجوقة ، وسأدفع لك أكثر مما أدفع للآخرين .

ـ كلا يا سيدى ، كلا ، لا تزد على ما قلت ، ليس لى مكان عندك . قلت لك ان الشيطان قد تملكنى . سأوقد فى بيتك نارا ان بقيت فيه . تمر بى لحظات من القلق الخانق أوثر فيها ان لا أكون قد ولدت . والآن لن استطيع أن أجيب أنا نفسى . الافضل ان تتركنى يا سيدى . لقد الم بى هذا كله منذ تعلق بى ذلك الشخص الجهنمى !

ـ من هو هذا الشخص ؟

ـ ومن عساه يكون ، ان لم يكن ذلك الذى فطس كما يفطس كلب ضائع ، ذلك الايطالى المنحوس .

ـ أهو الذى علمك العزف على الكمان يا عزيزى ياجور ؟

ـ نعم ، وعلمنى أشياء أخرى ، ليزيد شقائى . ليتنى لم أعرفه !

ـ وهل كان قديرا فى العزف الى هذا الحد ، يا عزيزى ياجور ؟

ـ كلا ، لم يكن يجيد العزف كثيرا ، لكنه كان يحسن التعليم . لقد علمت نفسى بنفسى . أما هو فلم يزد على أن يدلنى . نعم ، لقد كان أفضل لى أن تكون ذراعى يابسة من ان أتعلم هذا الفن . لقد اصبحت الآن لا أعرف ماذا أريد . تستطيع ان تقول لي يا سيدي : « ماذا تريد يا ياجور ؟

يمكنني ان اعطيك كل ما تريد » . اما أنا ، يا سيدى ، فلن أجيبك بكلمة ، لأنني لا أعلم أنا نفسي ماذا اريد . كلا ، يا سيدى ، الأفضل أن تتركني . أقول لك هذا للمرة الثانية . أحب ان اتصرف تصرفا يرسلني الى ابعد مكان ممكن ، فينتهى كل شيء .

فقال المالك بعد لحظة من صمت :

ــ لن أتركك هكذا يا ياجور . اذا كنت لا تحب ان تعود الى ، فلك ذلك . أنت حر ، ولا استطيع ان أحجزك ، لكنني لن أتركك الآن قبل أن تعزف لى شيئا ، يا ياجور . خذ كمانك ، أناشدك الله ، واعزف قليلا . افهمني . انني لا آمرك أمرا ، ولا احاول أن اكرهك اكراها ، وانما اتوسل اليك باكيا . اناشدك الله ، يا عزيزى ياجور ، أن تعزف لى ما عزفته للفرنسى . أطعنى . انك عنيد مثلى . لكل منا طبعه ، يا عزيزى ياجور . لقد فهمت أنا عواطفك ، فحاول ان تفهم أنت عواطفى . لا استطيع ان أعيش ما لم أسمعك تعزف ، بسرور ، ما عزفته للفرنسى .

ــ ليكن ما تريد . لقد عاهدت نفسى على ان لا اعزف امامك يا سيدى ، على ان لا اعزف امامك ابدا . ولكنك أثرت فى قلبى الآن ، فسأعزف لك ، وحدك ، وهذه هى المرة الأولى والأخيرة يا سيدى ، ولن تسمعني بعد ذلك ابدا ، فى أى مكان ، ولو دفعت من أجل ذلك ألف روبل !

عندئذ أمسك يافيموف بكمانه ، واخذ يعزف مقطوعة من تأليفه كان قد استمد موضوعها من أغان روسية قديمة ــ

(ويؤكد «ب» أن هذه المقطوعة هي أول وأحسن أثر ألفه عمى للكمان ، وانه لم يعزف فى حياته شيئا آخر بمثل هذه القـوة) ـ وكان المالك أثناء ذلك ، وهو من أولئك الذين لا يستطيعون أن يسمعوا موسيقى دون أن يتأثروا ، كان يبكى من فرط الانفعال . فلما انتهى يافيموف من عـزف المقطوعة ، نهض المالك من مكانه ، وأخرج من جيبه ثلاثمائة روبل ، ومد يده بها الى عمى وهو يقول :

ـ الآن تستطيع أن تمضى ، يا ياجور . سـأخرجك من هنا ، وسأتولى تسـوية الأمر مع الكونت . ولكن اسـمع جيدا : اياك ان تلقانى يوما ، ولو فى طريق. أمامك مستقبل واسع ، واذا التقينا يوما وجها لوجه ، فسيسىء ذلك الينا كلينا . والآن وداعا !.. بل اسمع : نصيحة أخرى اسديها اليك قبـل أن تمضى ، نصـيحة واحـدة : لا تدمن على الشراب. وخذ نفسك بالدراسة الدائمة ، والعمل المستمر ، ولا تفتر . اقول لك هذا نصيحة أب لابنه. أعود فأحذرك ! اعمل دائما ، واياك والحانات ، فانك ان الم بك حزن ، أو أصابتك خيبة (وما أكثر ما ستصاب بخيبات) فأخـذت تشرب ، مضيت الى دمارك ، وساءت حالك ، وكنت تعرض نفسك لأن تفطس فى أى مكان ، فى قاع حفرة ، كصـاحبك الايطالى . والآن وداعا . بل انتظر . عانقنى .

وتعانق الرجلان . ثم مضى عمى حرا طليقا .

ولم يكد يتحرر حتى سارع الى تبديد روبلاته الثلاثمائة فى مركز المنطقـة ، واخذ يصـاحب رواد أقذر الحـانات

وأحقرها ، وكانت نتيجة ذلك أن اضطر بعد قليل ، وقد أصبح وحيدا بلا مال ولا من يحميه ، أن ينخرط فى جوقة حقيرة لمسرح متجول ، وعين فى هذه الجوقة الكمانى الأول - ولعله كان الكمانى الوحيد ! - وطبيعى أن هذا لا يتفق مع أهدافه التى كان يرمى اليها فى أول الأمر . لقد كان يريد أن يمضى بأقصى سرعة الى بطرسبرج ، وأن يدرس هنالك ، وان يجد عملا مناسبا ، وأن يصبح فى تلك المدينة العظيمة فنانا مرموقا . ولم تجر حياته فى المسرح المتجول بلا عقبات . فانه لم يلبث أن تخاصم مع رئيس الفرقة ، وترك المسرح المتجول . **وفقد عندئذ كل شجاعة ، واضطر، تحت تأثير اليأس ، أن يكتب الى سيده القديم يذكر له وضعه ويسأله بعض المال ،** رغم أن ذلك يجرح كبرياءه جرحا عميقا ، الا انه لم يتلق أى جواب على رسالته تلك ، وكان قد كتبها بلهجة عنيفة . فكتب رسالة أخرى ذليلة ، يعترف فيها بفضل سيده عليه ، ويسميه باسم حامى الفنون ، ويتوسل اليه مرة أخرى أن يهب الى نجدته . ووصله الجواب : أخيرا ارسل اليه المالك مائة روبل ، مع بضعة أسطر بخط خادمه ، يحذره فيها من طلب المعونة بعد الآن . وحين تلقى عمى هذا المبلغ اعتزم أن يسافر فورا الى بطرسبرج ، لكنه بعد أن سدد ديونه كان ما بقى له من المال لا يفى بنفقات السفر . وهكذا ظل فى الأقاليم ، وانخرط مرة أخرى فى جوقة صغيرة ، وفى هذه المرة أيضا لم يتفاهم مع أفراد الجوقة ، وأخذ ينتقل من عمل الى آخر ،

وقد قر فى راسه ان يمضى الى بطرسبرج بأقصى سرعة ممكنة ، وبأية وسيلة من الوسائل . لكنه قضى على هذا فى الاقاليم ، ست سنين طوالا . وأخيرا استولى عليه اليأس. **ولاحظ ، على رعب وهول ، انه كان يفقد موهبته شيئا فشيئا فى هذه الحياة البائسة المشوشة التى لم يكن يلقى فيها الا ذلا بعد ذل** . وفى ذات صباح ترك عمله ، وحمل كمانه تحت ذراعه ، وسافر الى بطرسبرج وهو يكاد يتسول طوال الطريق . وهناك أقام فى شونة ، ولم يلبث أن اتصل بـ «ب» الذى كان قد وصل من المانيا وكان يحلم هو الآخر بمستقبل عريض . وسرعان ما قامت بينهما صداقة . وما يزال «ب» حتى الآن يتحدث عن صداقتهما فى ذلك الوقت بتأثر عميق ، لقد كان كل منهما شابا،وكانت تطوف فى رأس كل منهما أحلام واحدة ، ويهدف الى عين الغاية التى يهدف اليها الآخر . الا أن «ب» كان لا يزال شابا فى زهرة شبابه ، ولم يكن قد عانى حتى ذلك الحين كثيرا من الفقر والذل . وكان ألمانيا فوق كل شىء وقبل كل شىء ، يمضى الى غايته بعناد ومثابرة ، ويعرف قواه تمام المعرفة ، ويكاد يعرف مقدما ما سيصبحه ، فى حين أن رفيقه الذى ناهز الثلاثين وبلغ منه الارهاق مبلغه ، كان قد فقد كل جلد ، وكان قد أتلف صحته وقواه خلال تلك الأعوام الستة التى اضطر ان يكسب فيها قوت يومه بالعمل تارة فى مسرح صغير بالعاصمة ، وتارة فى جوقة حقيرة . لقد كانت الفكرة الثابتة التى تسيطر عليه أيامذاك

هى ان يخرج من هذا الوضع الحقير ، ان يدخر قليلا من المال ليلحق ببطرسبرج . الا ان هذه الفكرة الغامضة الغائمة كانت نوعا من نداء داخلى مبهم فقد سناءه ، بمر السنين ، شيئا بعد شيء ، فى نظر يافيموف نفسه ، حتى أصبح وصوله الى بطرسبرج أشبه بوصول انسان يتحرك بلا ارادة ، أو تحركه رغبة قديمة أصبحت عادة ، وكأنما قد أعشته الرحلة ، فأصبح لا يكاد يعرف ماذا جاء يعمل فى بطرسبرج . كان فى حماسته شيء من الكسل والمرارة ، فلا عمل لها الا أن تجعله يفتر بنفسه ، الى أن يستعيد الثقة بقواه الأولى ، بحمياه القديمة ، بالهامه الماضى الذى لم ينضب .

وكانت حماسته الدائمة هذه تبهر صاحبه البارد الرصين «ب» ، حتى بلغ من شدة اعجابه بعمى ان اعتقد انه سيصبح فنانا عبقريا ، وكان لا يستطيع ان يتصور مستقبل رفيقه على غير هذا النحو . ومع ذلك فان «ب» لم يلبث ان فتح عينيه ، وأدرك الحقيقة ، ورأى بوضوح ان هذه الحماسة الفائرة المحمومة ليست الا يأسا لا شعوريا من موهبة ضائعة ، **موهبة لعلها لم تكن ، حتى فى أول أمرها ، بالموهبة الخارقة** . ورأى ان كل ذلك لم يكن الا مزيجا من عماوة ، وغرور فارغ ، وزهو فى غير محله ، وخيال طائش ، وأحلام فى العبقرية التى يخال المرء ان يحملها فى نفسه . وقد تحدث «ب» قائلا : « ولكنى لم أكن استطيع ان امتنع عن العجب لطبيعة رفيقى الغريبة . لقد ظل المسكين ،

خلال سبع سنين طوال ، يجتر أحلام مجده المقبل دون أن يشعر أنه كان يفقد المبادىء الأولية فى الموسيقى ، بل والتكنيك الذى لابد منه لمبتدىء . وكان ، مع ذلك ، يرسم للمستقبل فى خياله المضطرب ، أضخم المشاريع الوهمية . كان يريد أن يصبح أحد أوائل العازفين على الكمان فى العالم . وكان يعد نفسه منذ ذلك الحين عبقريا من هذا الطراز ، بل كان ، وهو الذى يجهل ابسط مبادىء الطباق ، يعتقد أنه خلق ليكون مؤلفا موسيقيا . الا ان ما كان يدهشنى اكثر من أى شىء آخر هو أن هذا الرجل ، رغم ضعف المامه بالتكنيك الموسيقى ، كان يملك معرفة بالموسيقى واضحة ، معرفة «غريزية» ان صح التعبير . لقد كان احساسه بالموسيقى من القوة ، وكان فهمه للموسيقى من العمق بحيث لم يكن له بد من أن ينخدع فى حقيقة قيمته ، وأن يعد نفسه لا ناقدا عميقا نافذ الحدس فحسب ، بل كذلك أحد جهابذة الفن وعبقريا من عباقرته . **وكان يتفق له أن يقول لى بلغته البسيطة الخشنة ، وهو الذى كان غريبا عن كل ثقافة ، حقائق تبلغ من العمق أننى كنت اقف حيالها مشدوها** ، لا أفهم كيف كان فى وسعه أن يدركها ، وهو الذى لم يقرأ فى حياته شيئا ، ولا تعلم شيئا . ولا أكتم أننى استفدت منه كثيرا ، وانتفعت بنصائحه فيما حققت من تقدم . وكنت مطمئنا الى مصيرى . لقد كنت ، أنا ايضا ، شغوفا بفنى متعلقا به أشد التعلق ، رغم اننى كنت أعرف أن مواهبى ليست بالمواهب الفذة ،

وانني سأكون عاملا من عمال الفن ، وكنت راضيا بذلك ، على أنني أستطيع ان اعتز بأنني لم أقبر ما حبتني به الطبيعة ، بل ضاعفته مائة مرة . ان الناس ليثنون على مرونتي في العزف وعلى ما حصلته من براعة تكنيكية مدهشة . لكنني اعترف بأنني أدين بهذا للعمل المتواصل العنيد الذي أخذت به نفسي ، أدين به لمعرفتي الواضحة بقيمتي الحقيقية ، أدين به لنفوري من كل ما يمت بصلة الى الطمع والزهو ، الى القناعة الهينة والكسل ، الى كل هذه الصفات التي تنتج عن رضى المرء عن نفسه . »

وقد حاول «ب» ان يسدي النصح ، بدوره ، الى هذا الرفيق الذي طالما اصغى هو الى نصائحه باحترام ، الا ان رفيقه كان يضيق بنصائحه ويغضب منها غضبا شديدا . ولم تلبث صداقتهما أن ساورها الفتور . ولاحظ «ب» ان عمي يزداد استسلامه للخمول والحزن والضجر شيئا بعد شيء ، وان وثبات حماسته اصبحت اندر من ذي قبل ، وأصبح يعقبها نوع من القلق القاتم المحطم . وأخيرا هجر يافيموف كمانه خلال اسابيع طويلة . ولم يكن السقوط النهائي ببعيد . اذ لم يلبث أن انهار المسكين انهيارا تاما . وتحقق كل ما تنبأ به المالك :

فها هو يافيموف يدمن على السكر ادمانا لا يردعه عنه شيء . وكان «ب» ينظر الى ذلك وقد امتلأ قلبه رعبا . ولم يبق لنصائحه من أثر البتة ، حتى أصبح يتحاشى ان يوجه اليه أي نقد .

ووصل يافيموف من ذلك شيئا فشيئا الى استهتار لا يعرف الخجل : انه يعيش الآن عالة على «ب» ، ولكن ذلك لا يشعره بشىء من الاسف او الندامة ، حتى لقد كان يتصرف كما لو كان من حقه أن يعيش عالة عليه !

وكانت أسباب الرزق تنضب شيئا بعد شىء . لقد كان «ب» يعطى بعض الدروس فى الموسيقى ، أو كان يقوم بالعزف فى حفلات ساهرة لدى بعض اهل التجار من الألمان ، او لدى بعض الموظفين الفقراء ، وكان لايتقاضى الا أجراضئيلا، الا انه أجر على كل حال . وكان يافيموف يأبى أن يرى حالة الفقر التى يعانيها رفيقه . وكان يعامله فى كثير من الصلف والكبرياء ، حتى لقد تمضى أسابيع طويلة دون أن يكلف نفسه عناء التحدث الى رفيقه بكلمة واحدة .

وفى ذات يوم قال «ب» لعمى ، فى كثير من الرقة واللطف ، ان من الأفضل له أن لا يهمل كمانه كثيرا حتى لا يفقد مرونة أصابعه . لكن يافيموف غضب عضبا شديدا . وكأنما تخيل ان صاحبه سيركع متوسلا اليه ان يعود الى كمانه ، فقال أنه هجر كمانه عمدا ، وانه لن يمسه بعد الآن أبدا. وفى مرة أخرى احتاج «ب» الى زميل يعزف فى حفلة ساهرة دعى اليها ، فطلب الى يافيموف أن يصحبه ، الا ان هذا العرض أثار فى يافيموف غضبا هائلا ، فقال لصاحبه فى احتقار وازدراء انه ليس ممن يعزفون فى الشوارع ، وانه ليس من التفاهة ، كصاحبه «ب» ، بحيث يرضى أن يدنس فنه النبيل بالعزف لأناس من أصحاب « الدكاكين »

الحقيرين الذين هم أحط من أن يفهموا شيئا من عزفه ومن مواهبه . ولم يجب «ب» على هذا الكلام بحرف واحد . الا ان يافيموف فكر فى هذا العرض بعد أن مضى صديقه الى حفلته ، **فاعتقد ان صديقه قد رتب هذا كله ليفهمه بأنه يعيش عالة عليه ، وان من واجبه ان يعمل هو ايضا .** فما أن رجع «ب» انتفض يافيموف يؤنبه على وضاعة سلوكه ، ويصرح له بأنه لن يبقى معه بعد الآن لحظة واحدة .

وغاب يافيموف فعلا ، الا أنه عاد بعد ثلاثة ايام ، كأن شيئا لم يحدث ، واستأنف حياته كما كانت !

وما كان يصد «ب» ، مدة طويلة ، عن تحقيق نواياه فى التحرر من هذه الحياة التى لا يرضاها لنفسه وفى ترك رفيقه الى الأبد ، الا التعود والصداقة ، وكذلك قلقه على هذا الانسان الذى يسير الى الانهيار . الا أنهما انفصلا فى آخر الأمر ، وابتسم الحظ للصديق «ب» ، فوجد حاميا خطير المنزلة والجاه ، بعد أن أحيا حفلة نجحت نجاحا رائعا . ومنذ ذلك الوقت ظهر أنه فنان كفء ، وذاع صيته ، بل بلغ من سرعة ذيوع الصيت أن استطاع أن يجد عملا فى جوقة الأوبرا . وحين انفصل عن يافيموف أعطاه بعض المال ، وتوسل اليه ، والدموع تترقرق فى عينيه ، أن يعود الى الصراط القويم . انه ، الى هذه الساعة ، لا يستطيع أن يتذكر يافيموف دون ان يشعر بانفعال قوى . ان علاقاته بيافيموف ، ابان الشباب ، خلفت فى نفسه أعمق الأثر . لقد بدأ الاثنان عملهما معا ،

وكان تعلق أحدهما بالآخر من القوة بحيث أن تصرفات يافيموف الغريبة ، وعيوبه الواضحة كانت لا تزيد «ب» الا تعلقا بصديقه . لقد كان «ب» يفهم صديقه ويقرأ ما فى نفسه . كان يوجس النهاية التى سيصير اليها كل هذا . وقد تعانق الاثنان ساعة الانفصال ، بل وقع كل منهما فى ذراعى الآخر ، وأخذا يبكيان . وفى تلك الساعة صرخ يافيموف قائلا ، من خلال الدموع والشهيق ، انه ليس الا انسانا شقيا ، ليس الا انسانا ضالا ، وانه كان يعرف ذلك منذ مدة طويلة ، ولكنه فى هذه اللحظة انما يدرك أنه على شفا الهاوية ، كمحتضر ، وختم كلامه ، وقد امتقع لونه ، بقوله :

ـ اننى لا أملك أية موهبة .

وتأثر «ب» فى ذلك تأثرا رهيبا . ثم قال لصديقه :

ـ اسمع يا ياجور بتروفتش . أنت مخطىء . انك بهذا اليأس تدفع بنفسك دائما الى الانهيار . انك لا تملك جلدا ولا شجاعة . تدعى الآن أن ليس لك موهبة . لكن هذا يرجع الى حزنك . ليس صحيحا أنك لا تتمتع بموهبة . انك تتمتع بالموهبة ، اؤكد . أؤكد لك أن الموهبة لاتعوزك . هذا واضح من قدرتك على فهم الموسيقى والاحساس بها . وأستطيع أن ابرهن على ذلك بالرجوع الى حياتك نفسها . لقد ذكرت لى انك تألمت فى حياتك كثيرا ، وهذا يدل على انك منذ ذلك الحين ، تحمل فى نفسك هذا اليأس نفسه . فى ذلك الوقت ، ادرك فيك استاذك الأول ، ذلك الانسان

الفريب الذى طالما حدثتنى عنه والذى أيقظ فى نفسك حب الموسيقى ، أدرك فيك الموهبة الموسيقية . **لكنك لم تكن تعرف أنت نفسك ماذا يجرى فى أعماق نفسك . لم تكن تشعر بالراحة والطمأنينة عند المالك ، وكنت تجهل ماذا تريد .** ومات أستاذك قبل الأوان ، وتركك لآمال ومطامع غامضة مبهمة ، ولم يكشفك لنفسك ، وهذا أهم ما فى الأمر . كنت تشعر ان عليك أن تسلك سبيلا أخرى ، سبيلا أرحب . كنت تشعر أن حياة أخرى تنتظرك ، لكنك لم تكن تعرف الطريق اليها . ويئست ، فصرت تكره كل ما حولك . ان السنين الست التى قضيتها فى بؤس متلاحق لم تذهب سدى ، فقد تعلمت فنك ، وفكرت ، وعرفت قواك ، حتى اصبحت تفهم فنك وقيمتك . يا صديقى لابد من الصبر والشجاعة . ان ما خصتك به الطبيعة أعلى كثيرا مما خصتنى به أنا . أنك فنان أكثر منى مائة مرة ، ولكننى أسأل الله ان يهب لك جزءا مما وهب لى من صبر. اعمل ، ودع الشراب ، كما نصحك بذلك صاحبك المالك الممتاز .. **واستأنف من البداية ، استأنف من الألف باء . ما الذى يقعدك ؟ الفقر ؟ العوز ؟ ولكن الفقر هو الذى يصنع الفنان .** وهو أمر لابد منه فى البداية . انك الان انسان مهمل ، لا يحتاج اليك أحد ، ولا يحتاج أحد ان يعرفك .. تلك هى الحياة . وسترى فى المستقبل قساة آخرين حين يعرف من أنت ، وما قيمتك . سيخنقك الحسد وستخنقك النذالات وحماقة الناس أكثر مما

يخنقك الفقر .ان الموهبة فى حاجة الى حب ، انها فى حاجة لأن تفهم ، وسترى كيف سيعاملونك حين تشارف تحقيق غايتك . سيدوسونك بالأقدام ، سيحتقرون هذا الذى تكون قد اكتسبته بالعمل الشاق ، بالحرمان والجوع وسهر الليل .. لن يشجعك رفاقك الآتون ، ولن يواسوك. لن يدلوك على ما فيك من عناصر الخير والصدق . بالعكس ، سيحصون عليك كل غلطة ، ولن يروا غير عيوبك، ولن يبينوا لك الا ما انت فيه مخطىء ، سيفعلون ذلك وفى نفوسهم فرح خبيث . واذا تظاهروا لك بأنهم لا يحفلون بأمرك بل يزدرون شأنك كانوا فى الحقيقة يفرحون لكل ما تقع فيه من أخطاء (كأن الانسان معصوم من الخطأ !).

ثم انك امرؤ لا تتحمل شيئا ، انت انسان صلف فى غير داع الى صلف . وانت لذلك معرض فى كل لحظة لأن تجرح كبرياء طبل منفوخ .. ذلك هو سر شقائك ، لأنك ستظل وحدك ، وهم العدد الكبير . سيعذبونك بوخزات الابر . لقد بدأت انا نفسى أشعر بذلك . هيا يا عزيزى ، انهض من كبوتك الآن . ولست أعزل من كل سلاح .انك تستطيع أن تكسب رزقك . لا تحتقر التمارين اليدوية المبتذلة : ليس يضيرك ان يكون عزفك اول الأمر كنشر الخشب ثقلا، فلطالما نشرت انا الخشب طوال سهرات برمتها فى بيوت اولئك البائعين التافهين . الا انك لا تملك الجلد اللازم ، وانت لهذا مريض .

ثم انك تعوزك البساطة . انك تنتقد ، وتسرف في

التفكير : راسك وحده هو الذى يعمل . انت جرىء فى الكلام ، حتى اذا كان عليك ان تمسك بقوسك ارتعشت من الخوف .

ان كبرياءك قوية ، ثم انت لا تجرؤ على تحقيق شىء . كن شجاعا وعليك بالصبر ، وخذ نفسك بالتمرين ، واذا اعوزتك القوة حقا ، فعليك يومئذ بالمغامرة : **ان فيك حماسة ، وان نفسك لتفيض بالعاطفة ، وربما بلغت هدفك على هذا النحو .وهبك لم تبلغه ، فامض معذلك الى أمام.** لن تخسر فى ذلك شيئا ، بل سيزداد امتلاكك ناصية فنك. أجل يا صديقى ، ان «المغامرة» أمر عظيم ، بالنسبة الينا معشر الفنانين !

***

وقد أصغى يافيموف فى اول الأمر الى صديقه القديم وهو فى حالة انفعال عميق . وحين كان «ب» يتكلم كانت وجنتا يافيموف الشاحبتان تنتعشان وتحمران شيئا فشيئا . والتهبت عيناه ببريق من الجراة والأمل غير معهود فيه .

ولكن سرعان ما انحدرت هذه الجراة النبيلة مرة أخرى الى الاستهتار ثم الى الوقاحة ، فحين أنهى «ب» كلامه كان يافيموف قد أخذ يتململ . ومع ذلك فقد شد على يد صاحبه بحرارة ، وشكره . الا انه انتقل فجأة من مشاعر الذل العميق والحزن الشديد الى التعالى والكبرياء والصلف ، فصرخ فى وجه صاحبه بلهجة متحدية ، قائلا :

« لا تصدع رأسك بالاهتمام بمصيرى. اننى اعرف ما ينبغى لى أن اعمل ، وسترى قريبا عند من سأعمل ! سأحيى فى القريب حفلات موسيقيةرائعة ، وسأحصل على المجد والمال معا » .. ولم يعترض «ب» على هذا الكلام ، بل اكتفى بأن هز كتفيه . وعندئذ افترق الرفيقان القديمان .. الى حين طبعا .

فان يافيموف سرعان ما بدد المال الذى تركه له رفيقه، وعاد عبئا عليه مرة ثانية ، فثالثة ، فرابعة .. فعاشرة .. الى ان نفد صبر «ب» . حتى اذا عاد يافيموف مرة أوعز «ب» ان يقال له ان صاحبه ليس فى البيت . ومنذ تلك اللحظة لم يعد يراه !

***

وانقضت على ذلك بضع سنين . وفى ذات يوم بينما كان «ب» عائدا من عمله ، اصطدم – فى زقاق صغير ، على باب احدى الخمارات المنحطة – بسكران خلق الثياب يناديه باسمه . كان هذا السكران هو يافيموف ، ولكن وجهه كان قد تغير وشحب حتى لا يكاد يعرف . واضح اذن انه لم يدع حياته المضطربة الفاسدة ، حتى لقد تركت هذه الحياة على وجهه طابعا لا يمحى .

وشعر«ب»بكثير من السعادة لهذا اللقاء ، وهم أن يتكلم، لكن يافيموف لم يدع له فرصة الكلام ، بل جره الى داخل الخمارة ، وهناك ، فى حجرة صغيرة مدخنة استطاع «ب»

ان ينعم النظر فى يافيموف. **لقد كان صاحبه فى خرق بالية، وكان حذاؤه ممزقا ، وكان سرواله ملطخا بآثار الشراب ، وكان شعره قد ابيض وقلت غزارته .**

وابتدره «ب» قائلا :

— كيف أنت ؟ وأين أنت الآن ؟

وظهرت على وجه يافيموف علائم الاضطراب ، وبدا عليه الارتباك. وكانت أجوبته على اسئلة «ب» مفككة متقطعة، حتى خيل الى «ب» أنه أمام انسان مختل . واعترف يافيموف أخيرا انه لا يستطيع الكلام قبل أن يقدم له شيء من الشراب ، وان صاحب هذه الحانة اصبح يرفض أن يقدم له الشراب دينا منذ مدة طويلة .. واحمر وجه « يافيموف » وهو يقول هذا الكلام ، رغم محاولته ان يتجلد .. وكان منظر هذا كله يثير الشفقة والحزن والالم ، واهتزت نفس الصديق الطيب ، وفاضت حنانا ورحمة . لقد كانت مخاوفه اذن فى محلها . وامر ليافيموف بشراب .. فما ان احتساه حتى تغير وجهه !!

وكان من الهوان على نفسه بحيث تفجر الدمع من عينيه عرفانا بالجميل ، وحاول ان يقبل يد « ب » المحسن اليه . وصعق « ب » حين علم أثناء الغداء ان صاحبه البائس قد تزوج !.. الا ان دهشته تجاوزت كل الحدود حين قال له « يافيموف » ان امرأته هى السبب فى انهياره ، وانها قتلت موهبته .

فسأله « پ » :

ـ وكيف ذلك ؟!

فأجاب :

ـ انقضت سنتان ، ياعزيزى ، لم ألمس خلالهما كمانى . انها امرأة من طبقة منحطة ، امرأة عامية تافهة .. قتلها الله ! .. ان كل ما نستطيع أن نعمله معا ـ أنا وهى ـ هو أن نتضـــارب !

ـ ولكن اذا كانت كذلك ، فلم تزوجتها ؟

ـ كنت أتضـور جوعا حين عرفتها ، وكانت تملك الف روبل . وفقـــدت عقلى ، فتزوجت . وهى التى تهالكت على ، وتمســـكت بعنقى .. لم أدفعها الى ذلك . وذهب المال بسرعة يا عزيزى ، أما بقية الموهبة ، فقد ضـــاعت هى الاخـــرى !

ولاحظ « ب » ان يافيموف كان فى حاجة لأن ينتحـــل لنفســـه الاعذار ..

واردف يافيموف يقول :

ـ لقد هجـرت كل شىء ..

وهنا صرح بانه فى المدة الاخـــيرة كاد يصـــل الى كمال امتلاكه ناصية فنه ، وانه لو شـــاء لما استطاع « ب » ان يلحق به ، رغم انه احـــد اوائل العازفين عـــلى الكمان فى العاصـــمة !!

وفوجىء « ب » بهذا الكلام ، فسأله :

ـ ولماذا هجرت اذن كل شىء ؟ أما كان عليك ان تبحث عن عمـــل ؟

فأجاب يافيموف ، وهو يحرك يده علامة الاحتقار :

ــ عبثـــا . أين منكم من يفهم الموسيقى ؟ ماذا تعرفون من الموسيقى ؟ لا شيء .. لا شيء البتة . قصـــاراكم ان تنفخوا لحنا راقصـــا فى بالية . انكم لم تروا ولم تسمعوا عازفا على الكمان مجيدا . فعلام افسد عليكم راحتكم ؟ ظلوا اذن حيث أنتم ، ما طاب لكم ذلك !

ودعم « يافيموف » كلامه مرة اخرى بحركة من يده ، وترنح على مقعده ثملا ، ثم دعا « ب » أن يصـــحبه الى بيته ، وألح فى الدعوة . الا أن « ب » رفض ، واكتفى بأن اخذ عنوانه ، مؤكدا انه سيأتى لزيارته فى الغد . واخـــذ يافيموف ــ وقد اكتظت معدته ودارت فى رأسه الخمرة ــ ينظر الى رفيقه القديم نظرة ساخـــرة ، ويحاول ان يلذعه لذعا قويا بأية وســـيلة . وحـــين نهض « ب » يـــريد الانصراف ، هب « يافيموف » فتناول فراءه البالى وقدمه اليـــه ، كما يفعـــل الخادم مع عظيم من العظماء . وبينما كانا يجتـــازان القاعة ، توقف يافيموف ليقدم صاحبـــه للخدم وللجمهور ، قائلا انه أول عازف على الكمـــان فى العاصمة ، بل العازف الوحيد .. والخلاصـــة انه كان فى منتهى الوقاحة .

ومع ذلك ، مضى « ب » الى زيارته فى صـــباح الغد ، فى الغرفة الحقيرة الوحيدة التى كنا نسكنها جميعـــا .. كنت يومئذ فى الرابعـــة من عمرى ، وكان قد انقضى على زواج « يافيموف » بأمى سنتان . ولقد كانت أمى شقية



وكان من الهوان على نفسه بحيث تفجر الدمع من عينيه عرفانا بالجميل ،
وحاول أن يقبل يد « ب » المحسن اليه . (ص ٣٢)

حقا . كانت قبل أن تتزوج ابى تعمل مربية ، وكانت على جانب من الثقافة ، الا انها لفقرها تزوجت موظفا عجوزا هو أبى .. ولم تعش معه الا سنة واحدة ، مات أبى بعدها فجأة . وبعد موته وزعت تركته الهزيلة بين وارثيه ، فأصاب امى قدر زهيد من الدراهم ، وبقيت امى وحيدة معى .. وكان من الصعب أن تجد من يستخدمها مربية بعد ان اصبحت تحمل على ذراعيها طفلا .

وفى تلك الاثناء ، تعرفت صدفة على « يافيموف » ، فأحبته وافتتنت به ، والحق يقال . ذلك انها امرأة شديدة الحماسة ، حالمة ، فصدقت ما كان يكيله يافيموف لنفسه من الثناء على مواهبه ، وما كان يتحدث به عن مستقبله اللامع .

وساعدها الخيال فانطلقت تداعبها آمال رائعة ..وراق لها ان تكون مرشدا وسندا لرجل عبقرى ، فتزوجته .

ولكن ما ان انقضى على زواجها به شهر واحد ، حتى تبددت جميع احلامها وجميع آمالها ، ليحل محلها الواقع المحزن . ذلك ان يافيموف – ولعله تزوجها من اجل روبلاتها الالف – تنكر لها منذ نفد المال ! .. وكأنما راق له ان يتعلل عن فشله بهذه الحجة ، فطفق يعلن لكل من يلقاه ان زواجه قد قتل مواهبه ، وانه يستحيل ان يعمل فى غرفة خانقة ، ومن حوله اسرة جائعة ، وانه ما من الهام موسيقى يمكن ان يواتيه فى جو كهذا .. واخير ، أن القدر قد تآمر عليه منذ طفولته وان هذا كله واضح وضوح

النهار .. ولعله انتهى - هو نفسه - الى تصديق شكاواه ، فلقد كانت هذه الحجة الجديدة تغريه أيما اغراء ..

ان هذه الموهبة الشقية ، هذه الموهبة المتعطلة ، كانت تبحث - على غير شعور - عن علة خارجية تلقى عليها تبعة كل ما تلقاه من اخفاق ، وكل ما تعانيه من بؤس ..

ولم يكن يافيموف قادرا على ان ينظر الى الحقيقة الرهيبة وجها لوجه ، فيعرف أنه فيما يتصل بفنه قد انتهى الى الابد ، ومنذ مدة طويلة .. كان يكابر ويتمزق تمزق المريض حاصرته أحلام الحمى .. كان فى حرب مستمرة على الحقيقة المخيفة . واذا اتفق له أن تتفتح عيناه لحظة من الزمن ، فيستشف هذه الحقيقة ، كان يذعر حتى يشعر انه على شفا الجنون .. كان يستحيل عليه ان يتنازل عن احلامه التى كانت حياته نفسها خلال مدة طويلة . فظل يعتقد - حتى لفظ أنفاسه الاخيرة - أن ساعته لم تحن بعد ، وان مجده آت لاريب فيه ..

وكان فى الساعات التى يتضعضع فيها ايمانه هذا ، يندفع الى الشراب ، فاذا ضباب السكر يطرد همومه وينفى قلقه . ولعله لم يكن يدرى الى أى حد كانت حاجته الى امرأته شديدة . لقد كان وجودها حجة يتعلل بها عن فشله ، حتى لقد رسخ فى عقله اخيرا أن حياته لن تستأنف مجراها السليم الا بعد أن يقبر هذه المرأة التى ضيعته !

ولم تكن امى تفهمه .. فهى امرأة حالمة ، حتى انها لم تستطع أن تتحمل الصدمة الاولى حين تبدت لها الحقيقة

المرة . وقد اصبحت سريعة الاهتياج ، كئيبة المزاج ، كثيرة التأنيب والتقريع ، فكانت المشاجرات بينهما لا تنقطع ، وكان هو يجد لذة فى تعذيبها ، وكانت لا تكف عن حثه على البحث عن عمل . الا ان عماوة عمى ، وطبعه الشاذ ، وما رسخ فى عقله من ان امرأته هى السبب فى ضياعه .. كل ذلك جعل منه انسانا لا يعرف الرحمة الانسانية ، ولا سبيل للعاطفة الى قلبه . فكان لا ينقطع عن الضحك عليها ، ويقسم بصراحة قاسية انه لن يمس كمانه مادامت امرأته على قيد الحياة . ولم تطق أمى هذه الحياة ، رغم انها كانت تحب زوجها حبا عنيفا ، ورغم انها ظلت تحبه الى آخر لحظة من حياتها ، فاعتلت صحتها ، واصبحت لا تفارقها الاوجاع ، ولا يفارقها الذعر والفزع . الا أن ذلك كله لم يعفها من تبعة اطعام الاسرة ، وحاولت أن تستضيف سكانا يطعمون عندها بأجر ، الا أن زوجها كان يسرق دراهمها خلسة ، وكثيرا ما اتفق لها ان وضعت الصحون فارغة أمام هذين الشخصين اللذين تناضل من أجلهما .

وحين أتى « ب » لرؤيتنا ، كانت أمى منهمكة فى غسل الثياب وترقيع الملابس العتيقة .. تلك هى الحياة الشقية التى كنا نعيشها فى ظلمات غرفتنا الحقيرة .

وتأثر « ب » لرؤية شقائنا . فما كان منه الا أن قال لعمى :

ــ اسمع . انك لا تقول الا هراء وسخفا .. فلا تعد

على مسامعى قصة موهبتك الميتة .. بما عملك هنا مادامت هى التى تطعمك ؟

فأجاب عمى :

ـ لا شىء !

الا ان «ب» لم يكن يتصور بعد ، كل ما تعانيه أمى .. فكثيرا ما كان أبى يعود الى البيت فى صحبة اناس حقيرين ممن لا عمل لهم الا التسكع فى الازقة .. ويالهول ما كان يجرى فى البيت عندئذ !

وأخذ « ب » يعظ رفيقه القديم طويلا . وصرح له ـ أخير ـ بأنه ان لم يرعو عن غيه ويسلك سلوكا شريفا ، فلن يمد له يد المعونة ، وقال له ـ بلا لف ولا دوران ـ انه لن يعطيه شيئا من المال ، مادام سيبدده فى الشراب . ثم طلب اليه أن يمسك بكمانه وأن يسمعه عزفه ، ليحكم على قدرته . ومضى عمى لاحضار كمانه ، فانتهز « ب » هذه الفرصة ، ومد الى أمى خلسة بعض المال ، الا ان أمى لم تشأ ان تقبله ، فتلك هى المرة الاولى التى تتلقى فيها صدقة ! .. عندئذ مد «ب» المال الى أنا ، فأخذته ، وانفجرت أمى المسكينة باكية .. واتى عمى بكمانه ، الا أنه طلب أن يقدم اليه قليل من الخمر ، قائلا انه لا يستطيع أن يعزف بدون ذلك .

وجىء له بالخمر فشرب ، وسرعان ما انطلقت أساريره وانتعش . ثم قال متجها الى « ب » وهو يخرج من الدرج دفترا كبيرا غطاه الغبار :

ــ باسم الصداقة ، سأعزف لك شيئا من تأليفى .

ثم قال وهو يشير الى الدفتر :

ــ هل ترى ؟.. هذا كله من تأليفى !.. ولكنه من عجينة أخرى غير الحان « الباليه » التى تعزفونها .

وأخذ « ب » الدفتر ، وقلب بعض صفحاته صامتا . ثم أخرج من جيبه دفترا موسيقيا ، وطلب الى عمى ان يدع الآن مؤلفاته ، وأن يعزف له قطعة عينها من دفتره.

وانزعج عمى من ذلك قليلا . الا أنه لخوفه من أن يضيع هذا الحامى الجديد ، نفذ ما طلب اليه. وأدرك «ب» عندئذ ان رفيقه القديم الذى يتباهى بأنه لم يلمس كمانه منذ زواجه ، كان ــ فى الواقع ــ قد تمرن كثيرا أثناء ذلك، فتحسن عزفه تحسنا واضحا خلال فترة انفصالهما !

ليتكم ترون الفرح الذى فاض فى وجه امى المسكينة فى تلك اللحظة !.. لقد أخذت تتأمل زوجها فى كثير من التباهى والاعتزاز . وسر الصديق الطيب «ب» سرورا صادقا هو الآخر ، ووعد أن يجد لعمى عملا . وكانت له ــ فى ذلك الحين ــ علاقات بذوى الشأن ، فما لبث أن أعمل هذه العلاقات ، فاوصى بعمى خيرا ، بعد أن استقطعه عهدا على نفسه ان يصلح سيرته ويقوم سلوكه . واشترى «ب» لعمى ثيابا لائقة ، وقدمه لاشخاص من ذوى الشأن يتوقف عليهم ايجاد العمل الذى كان يريد ان يحصل له عليه . والحق ان « يافيموف » لم يكن يتصلف ويتكبر الا بالكلام ، أما فى أعماق نفسه ،فقد ملأه فرحا هذا العرض الذي تقدم به اليه

صديقه القديم .

وقد روى «ب» - فيما بعد - كيف كان يشعر بخجل شديد حين يأخذ عمى يتملقه ويتزلف اليه ويتذلل له ويغمره بسيل من عبارات التعظيم والاجلال ، خوفا على نعمه ان يقطعها عنه . والحق ان « يافيموف » فهم انهم يريدون ان يردوه الى الطريق السوى ، ففرح لذلك حتى انقطع عن الشراب .. وأخيرا وجدوا له عملا فى جوقة أحد المسارح ، واجتاز المسابقة بنجاح باهر لانه استطاع خلال شهر من الدأب والعمل ، ان يسترد كل ما كان فقده خلال ثمانية عشر شهرا من القعود عن العمل . وقطع على نفسه عهدا ان لا يكف عن العمل بعد ذلك ، وان يقوم بواجباته الجديدة على نحو دقيق منظم . الا ان حالة أسرتنا لم تتحسن بذلك . فان عمى لم يعط أمى من رواتبه قرشا واحدا ، بل كان ينفقها كلها على موائد يدعو اليها أصحابه الكثيرين ، الذين لم يلبث عددهم أن أصبح كبيرا جدا .

ولكنه كان يتجنب الاشخاص الذين يتمتعون بموهبة حقيقية ، ويجالس خاصة موظفى المسرح وأفراد «الكورس» وغيرهم ممن يستطيع أن يسيطر عليهم .

واستطاع ان يوحى اليهم باحترام خاص لشخصه ، اذ بين لهم -منذ البداية- ان الناس لايفهمونه وانه يتمتع بمواهب فذة ، وأن امرأته هى السبب فى ضياعه ، وان رئيس جوقتهم -أخيرا- لا يفهم فى الموسيقى شيئا البتة !.. وكان يسخر

من جميع فنانى الجوقة ، ومن اختيار المسرحيات التى تمثل، ومن مؤلفيها . وأخيرا ، أخذ يشرح نظرية جديدة فى الموسيقى . ثم تشاجر مع زملائه ومع رئيس الجوقة ، وكان فظا مع رؤسائه ، حتى اشتهر بين الجميع بأنه انسان مختل ، مزعج ، لا يصلح لشىء .. وهكذا عرف يافيموف كيف يتصرف على النحو الذى يتعب جميع الناس ، فما يطيقون بعد ذلك احتماله !

والحق أن ثمة ما يثير الاستغراب فى هذه الادعاءات المتطرفة ، تصدر عن موسيقى فى مثل اهماله ، وعن عازف فى مثل عجزه ، لاسيما حين كان يمدح نفسه بمثل هذا الافتخار ، وبمثل تلك اللهجة الجازمة القاطعة .. ولم يستثن من اتهاماته صديقه «ب» ، بل أخذ يشيع عنه تهما حقيرة ووشايات وضيعة ، يبتكرها ثم يذيعها على انها حقائق لا تقبل الشك . وانتهى ذلك كله الى أن تعكر الجو بين عمى وبين «ب» . ولم تنقض ستة أشهر على عمله فى الجوقة على هذا النحو الفوضوى المستهتر ، حتى اضطروا الى اخراجه . الا أنه لم يدع أروقه المسرح بهذه السرعة . وسرعان ما أصبح يرى من جديد ، بخرقة البالية القديمة ، بعد ان باع او رهن ملابسه المناسبة. واخذ يتردد هكذا على زملائه القدماء ، دون أن يعنيه ما اذا كان يسرهم أو يزعجهم ان يستقبلوا زائرا مثله. فكان ينقل اليهم الأقاويل، ويروج الحكايات السخيفة ، ويشكو اليهم حياته يوما بعد يوم ، ويدعو كلا منهم الى زيارته فى بيته للاعجاب بزوجته المجنونة.

وطبيعى أنه كان يجد دائما بينهم من يسره أن يقدم لزميل له مطرود قدحا من الشراب ليسمعه يلفق اسوأ الاقاويل . ثم ان حديث يافيموف كان بارعا يفيض بالملاحظات المرة اللاذعة مما يفتن هذا النوع من المستمعين. وكانوا يعاملونه كمهرج شبه مجنون ، يحضونه على الثرثرة تزجية للوقت وملئا للفراغ . وكان يحلو لهم أن يستثيروا غضبه ،بالتحدث امامه عن عازف جديد وصل الى العاصمة. فسرعان ما كان يتغير وجهه ، ويشرد لبه ، ويعضه الحسد ، ويسأل عن هذا العازف الجديد من هو وماهى مواهبه . وأعتقد أن ذلك الوقت هو بداية جنونه الحقيقى ، بداية الفكرة الثابتة التى حاصرت عقله واستبدت به،أعنى ايمانه بأنه أول عازف على الكمان ، فى بطرسبرج على الاقل ، وأن الحظ هو الذى خانه، وانه مضطهد مهان ، وانه ضحية أنواع شتى من المؤامرات ، وان الناس لايفهمونه ، وانه لذلك مجهول. وكانت هذه الفكرة الاخيرة تروق له وتتملق غروره ، فهناك أناس يحبون أن يعتقدوا أنهم مضطهدون مهانون ، حتى يستطيعوا أن يتفجعوا جهارا ، وأن يتأسوا فى سرهم بعبادة عبقريتهم المجهولة. وكان «يافيموف» يعرف جميع العازفين من أولهم الى آخرهم ، ما من احد منهم يستطيع ان يضارعه. وكان الهواة الذين يعرفون لوثته يحبون أن يثنوا أمامه على عازف من العازفين ليحضوه على ابداء رأيه ..

وكانوا يستعذبون ضغينته ، ويستلطفون ملاحظاته المحكمة وكلماته اللاذعة الفكهة التى كان يطلقها فى التهكم على عزف

خصمه الخيالى ! .. وكانوا كثيرا مالا يفهمونه ، الا انهم كانوا يعتقدون انه ما من أحد فى العالم يستطيع أن يصف مشاهير الموسيقيين فى تلك الآونة وصفا «كاريكاتوريا» فى مثل براعته وفكاهته ، حتى ان الفنانين الذين كان يسلط عليهم لسانه المر كانوا يخشونه بعض الشىء ، لانهم يعرفون السم الذى يقطر من أحاديثه ، ويشعرون بما فى ملاحظاته من احكام صائبة !.. واعتاد الناس أن يروه فى أروقة المسرح وكواليسه . وكان المستخدمون يدعونه يدخل دون اعتراض ، كشخص لاغنى عنه ، لقد أصبح « ترسيت »(١) هذا المكان .

ودامت هذه الحياة سنتين أو ثلاثة سنين، الى ان سئمه جميع الناس ، حتى فى هذا الدور الاخير ، وعندئذ طرد نهائيا . واختفى عمى بعدئذ سنتين كاملتين اختفاء تاما ، ولم يعلم احد ممن يعرفونه الى أين مضى . الا ان « ب » صادفه مرتين على حال من البؤس والشقاء استدرت شفقته ، فتقلبت الرحمة على الاشمئزاز ، فناداه مرة ، الا ان عمى ارتبك ، وتظاهر بأنه لم يسمعه وشد قبعته المشوهة الرثة على رأسه حتى غطت عينيه ، وتابع سيره . وفى صباح احد الاعياد جاء خادم «ب» يقول له ان صديقه القديم على الباب أتي يقدم اليه تهانيه بالعيد وتمنياته . فخرج «ب» للقائه .

---

(١) من شخوص الميثولوجيا اليونانية .. كان احد اليونانيين الذين اشتركوا فى حصار طروادة ، وكان أبشع رجل فى الجيش ، جبانا ثرثارا ، يشتم جميع الناس ، ويهجو قادته . وظل « ترسيت » شخصا اسطوريا يرمز الى الجبن والوقاحة (المترجم) .

كان يافيموف فى حالة سكر شديد ، فلما رأى «ب» خر راكعا حتى كاد يلامس الارض اظهارا لذله ، وتمتم بضع كلمات، وابى ان يدخل . وكان لسان حاله طبعا يقول : ليس من حقنا نحن أهل الشقاء ان نعاشر عظماء فى مثل منزلتكم . وكل ما يسمح لنا به ، نحن صغار الناس ، ان نفعل ما يفعله الخدم : نتملق ونحن على عتبة الباب . ونخر راكعين ثم ننصرف . ذلك كان سلوكه المزرى . ولم يره «ب» منذ ذلك الحين الا بعد مدة طويلة ، أى يوم وقعت الواقعة التى اختتمت بها هذه الحياة الشقية المريضة الفاسدة . لقد كانت فاجعة فظيعة . انها لا ترتبط ارتباطا وثيقا بمشاعر طفولتى فحسب ، بل بحياتى كلها ، وسأروى لكم الآن كيف وقعت . الا انه لابد لى ، قبل كل شيء ، من أن أذكر ماذا كانت طفولتى ، **وماذا كان بالنسبة الى ذلك الرجل الذى خلف فى عواطفى الاولى أثرا مؤلما الى هذا الحد، ذلك الرجل الذى سبب موت أمى المسكينة .**

- ٢ -

لم تبدأ ذكرياتى الامتأخرة جدا، فى نحو التاسعة من عمرى. لا ادرى كيف يمكن ذلك . الا أن كل ما انقضى قبل هـذا العهد لم يدع فى نفسى أى أثر يمكن ان اذكره الآن . ولكننى فى مقابل ذلك استطيع ان ارى بوضوح تام كل ما وقـع بعد الثامنة والنصف من عمرى ، يوما بيـوم ، دون أى انقطاع ، كأنه وقع كله بالامس . صحيح أننى استطيع ان اتذكر بعض الحوادث التى سبقت هذه المرحلة، الا ان ذكرياتى عن هذه الحوادث أشبة بأحلام مريض : مازلت أرى ـ مثلا ـ سراجا صغيرا يعس فى ركن مظلم الى جانب أيقونة قديمة. ومازلت أعلم أننى كنت ذات يوم فى الشارع ، فدهسنى حصان ، وقيل لى اننى بقيت بعد ذلك طريحة الفراش طوال ثلاثة أشهر . ومازلت اذكر أيضا أننى اثناء ذلك المـرض استيقظت ذات مرة مذعورة ، وكنت أنام مع أمى على فراش واحد ، وان أوهامى والسكون وقرقعة فأر فى ركن الغـرفة ارعبتنى أشد الرعب ، فقضيت بقية الليل ارتعد منكمشة على نفسى تحت الغطاء ، دون ان اجرؤ على ايقاظ امى (وهذا ما يجعلنى افترض أننى كنت أخشاها اكثر مما اخشى سائر المخاوف مجتمعة !) .. الا اننى منذ اللحظة التى شعرت فيها بذاتى ، أصبح نموى سريعا وعجيبا ، حتى أننى احسست بكثير من المشاعر التى ليست من الطفولة فى شىء . لقد أضاء

كل شىء أمام نظرى ، وسرعان ما أصبح كل شىء مفهوما . **ان اللحظة التى بدأت فيها ذكرياتى الحقيقية قد تركت فى نفسى اثرا حادا من الألم ، وكان هذا الاثر يزداد يوما بعد يوم ، حتى اضفى على جميع حياتى التى قضيتها بين عمى وامى، أعنى على طفولتى كلها ، لونا قاتما غريبا !**

يخيل الى الآن اننى كأنما استيقظت فجأة من نوم ثقيل ، استيقظت فى غرفة كبيرة منخفضة السقف ، قذرة ، تفوح منها روائح الاختناق ، جدرانها ملطخة بلون رمادى قذر ، وفى احدى زواياها تنتصب مدفأة روسية قديمة . والنوافذ تطل على الشارع، أو بالاصح على سطح البيت المقابل ، وهى جميعها أشبه بشقوق ، لشدة ضيقها وامتدادها عرضا ، وحوافيها من البعد عن أرض الغرفة بحيث احتجت ، فيما اذكر ، الى ان اضع كرسيا والى ان اضع فوق الكرسى مقعدا حتى استطيع أن اصل الى هذا المكان الذى كنت احب ان اجلس فيه حين لا يكون فى البيت احد . لقد كان المنظر يمتد من هذه النوافذ على نصف المدينة . كنا نعيش تحت السقف من عمّارة كبيرة تتألف من ستة طوابق ، وكان أثاث بيتنا كله لا يزيد على « ديوان » من قماش مشمع اصبح مزقا مغبرة باهتة ، وعلى طاولة كبيرة من خشب أبيض وكرسيين ، وعلى سرير أمى ، وخزانة صغيرة ، واخرى متداعية اسندت الى زاوية من زوايا الغرفة ، وحاجز من ورق تمزق .

انى أتذكر ذلك المساء ، عند الشفق . كان كل شىء قد تبعثر على أرض الغرفة : المقشة ، خرق المسح ، أوانينا التى

من خشب ، زجاجة مكسورة ، واشياء أخرى ايضا .. وأمى تبكى وهى ترتعد من شدة الهيجان ، وعمى جالس فى أحد اركان الغرفة ، وهو يرتدى ردنجوته السرمدى . وكان عمى يرد على كلام امى هازئا ساخرا ، وكان ذلك يزيد غضب أمى .

وفجأة تعود المقشة والاوانى الى رقصها العنيف . وأخذت اصرخ غارقة فى الدموع ، واندفعت الى امام احاول ان اباعد بينهما . **كنت فى حالة ذعر هائل . وأحطت عمى بذراعى أريد ان اغطيه بجسمى لاحميه . كنت اعتقد ، لا ادرى لماذا ، ان أمى هى المخطئة فى غضبها عليه ، وانه ليس بمذنب . ووددت لو اتشفع له ، وان احتمل عنه كل قصاص .**

كنت أخاف أمى خوفا شديدا ، فكان يتراءى لى انه ما من أحد الا ويخشاها كما أخشاها أنا .

وشدهت أمى فى اول الأمر ، ثم أمسكت بيدى وجرتنى الى ما وراء الحاجز . واصطدمت يدى بالسرير فآلمتنى ألما شديدا ، الا ان الخوف كان أشد من الألم ، فلم احرك ساكنا ، ولا ظهرت على وجهى أية علامة من علامات الألم .

وما زلت اذكر أن أمى خاطبت أبى بعد ذلك بلهجة عنيفة وهى تشير الى باصبعها (سأسميه بعد الان أبى ، فى قصتى هذه ، لأننى لم أعلم انه ليس ابى الا بعد مدة طويلة من ذلك) . ودام هذا المشهد ساعتين طويلتين كنت أحاول عبثا خلالهما ، وانا أرتجف من القلق ، ان احزر كيف سينتهى الأمر .

وأخير هدأت المشاجرة ، وانصرفت أمى . عندئذ نادانى أبى فقبلنى ، وداعب رأسى ، وحملنى الى ركبتيه بينما كنت أشد جسمى اليه برفق وحب .

كانت تلك فيما اعتقد أول مداعبة أبوية . ولعلها هى السبب فى أن ذكرياتى أصبحت منذ تلك اللحظة واضحة هذا الوضوح . ولاحظت بجلاء تام اننى اكتسبت عطف أبى بالتحزب له . ولعل هذه هى المرة الاولى التى قام فيها فى ذهنى أن أمى كانت تجعل حياة ابى قاسية شاقة . ومنذ استقرت هذه الفكرة فى نفسى أصبحت تعذبنى وتزيدنى عذابا يوما بعد يوم .

وشعرت نحو أبى ، منذ تلك اللحظة ، بحب ليس له حدود ، حب غريب ليس من الطفولة فى شىء . حتى لأستطيع أن اقول ان هذه العاطفة تشتمل على شىء مما تشعر به الأم نحو ابنها من حب وقلق ، ان لم يكن مضحكا أن توصف عاطفة طفل بمثل هذا . كان يتراءى لى أن أبى حقيق بالرثاء ، معذب ، مضطهد ، وأن من الظلم أن لا أحبه حبا قويا ، وأن لا أواسيه ، وأن لا اظهر له أية عاطفة ، وأن لا أهب له نفسى مخلصة صادقة . ومع ذلك فاننى لا أعرف الآن لم كانت الفكرة التى استقرت فى ذهنى يومئذ هى أن أبى اشقى الناس وأكثرهم عذابا . ما الذى ألهمنى هذه الفكرة ؟ كيف استطعت ، انا الصغيرة ، أن أنفذ الى أعماق نفسه فأدرك الآلام التى كان يعانيها ثمرة لاخفاقه ؟ لقد نفذت مع ذلك الى هذه الآلام ، وان كنت قد

بدلت صورتها طبعا ، وجعلتها فى مستوى خيالى . والى الآن لا أدرى من أين أتانى هذا الحدث . **لعل قسوة أمى الشديدة على هى التى دفعتنى الى التعلق بابى ، تعلقى بانسان يعانى مثل الشقاء الذى أعانيه ، وفقا للصورة التى رسمتها فى نفسى عنه .**

رويت الى الآن يقظتى الأولى من نوم الطفولة ، والحادث الأول فى حياتى . وقد جرحنى هذا الحادث جرحا عميقا ، ومنذ ذلك اليوم أخذ نموى يتم بسرعة عجيبة ، بسرعة مرهقة ، واصبحت لا أكتفى بالمشاعر التى تصلنى من الخارج بل صرت أفكر ، وأحكم ، والاحظ . فاذا كل ما يحيط بى يرتسم فى ذهنى وفقا للصورة الخيالية التى كان يكررها أبى ، والتى كان لابد أن اعدها الحقيقة الصافية . وادركت أشياء كثيرة عجيبة . أدركت مثلا (ولا افهم الآن كيف تم لى ذلك) اننى اعيش فى أسرة عجيبة ، وان ابوى لايشبهان فى شىء الناس الذين كان يتفق لى أن القاهم . **وكنت اتساءل : ((لماذا يختلف مظهر الناس الذين أراهم عن مظهر أبوى ؟ لماذا أرى فى وجوههم فرحا .. على حين أنه ما من أحد يضحك يوما فى بيتنا ، فى ركننا النائى ، ما من أحد يعرف الفرح سبيلا الى نفسه !؟))** لست ادرى الآن ما الذى كان يدفعنى ، أنا الطفلة التى لم تتجاوز التاسعة من عمرها ، الى ملاحظة الناس فى مثل هذا الانتباه الشديد ، والى الاستماع الى كل كلمة يقولونها فى مثل هذه المرارة اللاذعة ، حين كنت القاهم عرضا على سلم البيت ، أو فى الشارع ،

أو حين كنت امضى الى أحد الحوانيت ، ملفعة بثوب أمى ، لأشترى ببضعة قروش قليلا من السكر أو الشاى أو الخبز ؟ .. وفهمت - لا أدرى كيف - أن شقاء لا يحتمل يختبىء فى بيتنا ، فى هذا البيت الحقير . وكنت اعصر ذهنى باحثة عن علة ذلك ، ولا أدرى ما الذى ساعدنى على حل اللغز على النحو التالى : قلت فى نفسى ان أمى هى المسئولة ، انها سبب شقاء أبى . وهذا يضطرنى الى التساؤل مرة اخرى : كيف أمكن ان ترسخ هذه الفكرة الشيطانية فى نفسى . **ومهما يكن من أمر فان تعلقى بأبى أخذ يزداد ، واخذ يزداد كرهى لأمى ، وما زالت هذه الذكرى تحدث لى ألما عميقا حتى الآن .**

وهذا حادث آخر عجل تعلقى بأبى أكثر من الحادث الاول : ذات مرة ، فى نحو الساعة التاسعة من المساء ، ارسلتنى أمى الى السوق لشراء قليل من الخميرة ، ولم يكن أبى فى البيت . ووقعت فى الشارع وأنا عائدة الى البيت فانسفح على الارض كل ما كان يحويه الفنجان . وتصورت ، أول ما تصورت ، جام الغضب الذى ستصبه أمى على رأسى ، وشعرت الى جانب ذلك بألم فظيع فى ذراعى اليسرى ، ولم استطع أن انهض على قدمى ، وتجمع حولى « المتفرجون » . وحاولت امرأة أن تنهضنى ، ومر صبى وهو يركض فلكمنى على رأسى ومضى ، وأنهضونى أخيرا ، فلملمت قطع فنجانى ، ومضيت مرتعشة مرتجفة لا أكاد أقوى على السير . وفجأة لمحت أبى . لمحته فى وسط جمهور تجمع

امام البيت الجميل الذى يقابل بيتنا . كان هـذا البيت الذى يقطنه أناس أغنياء مضاء على نحو رائع . وأمام باب البيت كان يقف عدد من العربات . ومن خلال النـوافذ كانت تخرج أصوات موسيقى . وأمسكت بطرف ثوب أبى ، واريته فنجانى المكسـور ، وذكرت له ، وأنا ابكى ، اننى خائفة من العودة الى البيت . لا أدرى الآن لم كنت على ثقـة من أنه سيصحبنى وسيدافع عنى ، لا ادرى من أين اتانى هـذا اليقـين ، ومن ذا الذى أوحى الى بانه سيحمينى ، وأنه يحبنى أكثر مما تحبنى أمى بكثـير . لا أدرى كيف اتجهت اليه دون أن يساورنى اى خوف . وأمسـك أبى بيدى ، وأخذ يواسـينى ، ثم قال لى انه سيرينى شيئا . ورفعنى بين ذراعيه . لم استطع أن أرى شيئا ، لانه شد ذراعى المجروحـة ، وآلمنى ألما هائلا . الا اننى لم أصرخ ولم اتوجع ، لأننى كنت لا أحب ان ازعجه فى شىء . وسألنى ملحا عما اذا كنت أرى شيئا . وحاولت ، جهـد اليائس ، ان اجيبـه بما يحب ، فقلت له اننى أرى ستائر حمرا . وحين أراد أن يحملنى الى الجانب الآخـر من الشارع ، بالقرب من البيت ، رأيتنى أبكى فجأة على الرغم منى ، وأخذت أتوسـل اليه ، وقد أحطت عنقـه بذراعى ، أن يصـعد بى الى البيت بسرعة . اننى اتذكر الآن أن مداعبات أبى فى تلك اللحظة كانت تؤلمنى ، فاننى لم أحتمـل أن يحبنى ويداعبنى احد هـذين اللذين أود ان أحبهما كل الحب ، فى وقت اخاف فيه الآخر واخشى

أن امثل بين يديه . الا أن أمى لم تكد تغضب ، وامرتنى أن أمضى الى فراشى وأنام . وأذكر أن الم ذراعى اخذ يشتد ويشتد ، حتى سبب لى حمى شديدة . ورغم ذلك كانت سعادتى عظيمة جدا ، لأن الامر انتهى بسلام ، حتى لقد حلمت طوال الليل بالبيت الذى يقابل بيتنا وبستائره الحمر .

لذلك كانت صورة هذا البيت أول ما مثل فى خاطرى حين استيقظت فى صباح اليوم التالى . وما كادت أمى تنزل الى ساحة المنزل ، حتى تسلقت حافة النافذة لأتأمل ذلك البيت مرة أخرى ، وكنت أفكر فيه منذ زمان طويل ، وكنت أحب ان أنظر اليه فى المساء خاصة ، حين تضىء الأنوار فى الشارع ، فتصطبغ بلون الدم ، تحت الأشعة الخاصة التى تسقط عليها من خلال نوافذه العالية المغلفلة بالستائر الارجوانية ، والمضاءة اضاءة قوية .

وأمام الباب ، تقف دائما عربات فاخرة شدت اليها خيول رائعة . كان كل شىء يثير فى حب الاستطلاع : الصراخ ، الازدحام ، القناديل المبرقشة ، النساء المتبرجات ينزلن من العربات . كان خيالى يخلع على هذا كله جوا سحريا مترفا كجو الاساطير . وفى ذلك اليوم على وجه الخصوص ، بعد لقائى أبى على عتبة هذا البيت ، ازداد البيت فى نظرى فتنة وسحرا . وكانت صور الروعة قد بدأت تتخاطر فى ذهنى الهائم . ثم انى أعيش بين أناس شاذين كأبى وأمى ، قد أصبحت شاذة عجيبة ، أنا الأخرى ، ما من ذلك مهرب .

من ذلك أن رؤية أمي وهي تتحمل هذا العناء كله في سبيل اعالتنا ، وما كنت اسمعه من تقريعها أبي دون انقطاع على انها وحدها تعمل ، كل ذلك كان يشغل بالي ويصدعه . فكنت أتساءل ، بالرغم مني : لماذا لا يساعدها أبي أبدا ، ولماذا يعيش بيننا كأنه غريب عنا ؟ ان بعض كلمات أمي أيقظت في نفسي هذه الفكرة . وكانت لي مفاجأة كبيرة يوم فهمت أن أبي شخص « موهوب » ، انه « فنان » . ورسخت هذه الكلمة في ذاكرتي ، وسرعان ما استقر في ذهني ان الفنان مخلوق عجيب ، لا يشبه غيره من الناس . لعل سلوك أبي هو الذي انتهى بي الى هذه النتيجة ، أو لعل كلمة سمعتها ثم نسيتها ، هي التي رسخت في نفسي هذه الفكرة . ومهما يكن من أمر فان هناك عبارة قالها أبي ذات يوم بحرارة قوية ورسخت في ذاكرتي لا تبرحها ، قال : **سيأتي يوم لن يكون هو فيه انسانا رثا بل سيدا محترما ورجلا غنيا ، سيأتي يوم يبعث فيه بعثا جديدا ، وهو اليوم الذي تموت فيه أمي !** .. أذكر أنني ما ان سمعت هذه الكلمات حتى انتابني في أول الأمر رعب شديد ، ولم أستطع أن أبقى في الغرفة . فهربت الى الممر البارد ، وانكمشت الى جانب النافذة ، وقد اعتمدت وجهي بين يدي ، وأخذت أشهق وانتحب . ثم لما فكرت في الأمر مليا ، وهب الخيال الى نجدتي ، وجدتني آلف رغبة أبي الكريهة هذه . وكنت ، من جهة أخرى ، لا أستطيع أن أظل مدة طويلة أمام سر لا يمكن فهمه ، وكان لابد لي من أن أستقر

على افتراض يرتاح اليه عقلى ، وهكذا وجدتنى أعتقد (لا ادرى كيف تم ذلك) أنه متى ماتت أمى فسيترك أبى هذا البيت الحقير ، ويمضى بى الى مكان آخر . أما أين هو المكان ، فذلك ما لم أستطع أن اتخيله بوضوح ، حتى اللحظة الأخيرة . والذكرى الوحيدة التى بقيت لى عن المكان الذى سنمضى اليه (وكنا سنمضى اليه من أجلى أنا طبعا) هو أنه سيكون مكانا رائعا فخما عظيما . لقد خلقت من أحلامى الخيالية واقعا حيا . وتراءى لى اننا سنصبح أغنياء فى طرفة عين ، فما أحتاج ان اذهب الى شراء بعض الحاجات من الدكاكين ، وكان هذا العمل كريها جدا الى نفسى ، فقد كان أولاد البيت المجاور يتحرشون بى كلما خرجت ، وكنت أخشاهم خاصة حين أحمل قليلا من الحليب أو الزبدة ، فأسقط ما أحمل على الارض ، واتعرض لعقاب أمى القاسى . وتراءى لى أن أبى سيشترى لنفسه ثيابا جميلة . وتخيلت أننا سنمضى بعد ذلك الى البيت الذى يقابل بيتنا ، ونستقر فيه . نعم ، ان البيت الغنى ذا الستائر الحمر الذى رفعنى أبى أمام نوافذه ذات يوم ليرينى ما بداخله ، هب كذلك لنجدة خيالى . وحللت المسألة على الفور : سيكون هذا البيت بيتنا ، وسنمكث فى حناياه فى عيد دائم ، فى سعادة أبدية . ومنذ تلك اللحظة صرت اذا جاء المساء أقف على نافذة بيتنا أتأمل القصر المسحور فى شوق ما بعده شوق : فأرى وصول العربات ، وأرى الزوار فى أجمل الحلى ، واسمع أصوات موسيقى عذبة تخرج من خلال

النوافذ ، واتأمل الظلال التى تتخاطر على الستائر ، وأحاول أن أحرز ما يعمله الناس فى هذا البيت الذى كان فى نظرى جنة، وعيدا أبديا ،وصرت أحتقر مسكننا الوضيع، وأحتقر الخرق البالية التى أرتديها .

***

وذات يوم غضبت أمى فأمرتنى ان أنزل عن النافذة ، حيث أطلق لأحلامى العنان ، على عادتى . فما لبثت أن أعتقدت ان أمى انما تمنعنى من التفكير فى هذا البيت ومن النظر اليه لأن مستقبلنا لا يحلو لها ، ولأنها تريد ان تحول بيننا وبينه . وظللت طوال السهرة أرقب امى بحذر .

وكيف أمكن ان أكون فى مثل هذه القسوة على انسان لقى من العذاب الأبدى ما لقيت أمى ؟ اليوم فقط أصبحت ادرك انها كانت تعيش فى جحيم ، اليوم فقط أدرك ، وقلبى يتمزق من الأسى ، أنها شهيدة . على اننى فى تلك الفترة القاتمة من طفولتى الغريبة ، فى تلك الفترة من حياتى التى كنت انمو فيها نموا غير طبيعى ، كثيرا ما كان ينقبض صدرى ألما ورحمة ، كثيرا ما كان يثور ضميرى كلماتراءى لى أننى أظلم أمى . الا ان القلق والخوف والريبة ظلت أقوى من كل شىء آخر . والحق أننا كنا بعيدتين احدانا عن الأخرى . فلست أذكر أننى تمنيت فى يوم من الأيام ان اخلو بها . لذلك كانت أية ذكرى من ذكرياتى الآن تسمم نفسى وتجعلنى أرتعد من شدة الألم .

أذكر مرة (ولا شك ان ما سأرويه أمر مبتذل ، الا أن ذكريات من هذا النوع هى التى تعاودنى الآن وتعذبنى) أن أمى أرادت ذات مساء ، اثناء غياب أبى ، أن ترسلنى الى الحانوت اشترى لها قليلا من الشاى والسكر . ولكنها قبل ان ترسلنى أخذت تفكر طويلا ، ولم تعزم أمرها ، وجعلت تعد ، بصوت عال ، المبلغ الضئيل الذى كانت تملكه قطعا نقدية صغيرة . واعتقد أنها ظلت تعد هذا المبلغ خلال نصف ساعة كاملة دون أن تفرغ من ذلك . لقد كانت المسكينة تصاب فى بعض اللحظات بنوع من التبلد ، نتيجة لما كانت تعانيه من آلام . واذا صدقت ذاكرتى ، فقد تمتمت أمى لا ادرى بماذا ، دون ان تكف عن عد دراهمها ببطء وعناية كبيرة . كأن الكلمات كانت لا تواتيها . وكانت شفتاها دكناوين ، ووجنتاها كابيتين مكفهرتين ، ويداها مرتجفتين، وكانت لا تنى تهز رأسها ، على عادتها حين تتخذ قرارا .

وأخيرا قالت وهى تنظر الى : « كلا .. مستحيل .. خير لى أن أنام. أليس كذلك ؟ هل تحبين ان تنامى يا نيتوتشكا ؟ » . ولم أجب . عندئذ رفعت أمى رأسى ، ونظرت الى فى رفق ولطف وحب ، واشرقت فى وجهها ابتسامة صافية تفيض بحنان الأم ، فما رأيتنى الا وقلبى يخفق . لقد نادتنى بقولها نيتوتشكا ، وهذا يشير الى انها فى تلك اللحظة أحبتني حبا خاصا ، وكانت هى التى تخيلت فيما مضي ان تغير اسمى ، وهو آنا ، فتناديني بهذا الاسم المصغر الذي يشير الي الحب ، وحين كانت تناديني بهذا

الاسم المصـــــفر كان ذلك يعنى أنها على اســـتعداد لأن تلاطفنى وتداعبنى . وانفعلت انفعـــالا قويا حتى اشتهيت أن اطوق عنقها بذراعى ، وابكى معها .

وداعبت رأسى طويلا ، ولعلها فعلت ذلك على نحو آلى دون ان تشعر ، وظلت تكرر : «صغيرتى آنا ، حبيبتى نيتوتشكا» .

وتفجرت من عينى الدموع ، الا اننى تجلدت لأحبسهـــا .. كابرت جهدى حتى لا أدعها ترى انفعالى ، رغم ما يسبب ذلك لى من ألم .

كلا ! لا يمكن ان يكون هذا مجرد قسوة منى. **لا يمكن ان اشعر نحو أمى بالعداوة لمجرد قسوتها على ! لقد كان يدفعنى الى كرهها هذا الحب الموحد الشديد الذى أشعر به نحو أبى** . لقد كان يتفق لى ، فى بعض الاحيـــان ، ان أستيقظ من نومى ليلا ، فى الركن الذى أنا فيـــه ، على حصـــيرتى الصغيرة ، تحت غطائى الرقيق، وقد تملكنى شعور مخيف . كنت ما زلت اتذكر فى ذلك الحين ، وأنا شبه نائمة ، أننى قبل هذه المدة بقليل ، حين كنت أصغر من ذلك ، كنت أنام مع أمى ، وكنت أقل خوفا حين أستيقظ ، وكان يكفينى ان أشد نفسى اليها ، وأن أغمض جفنى ، وأن أعانقها بقوة ، حتى أنام على الفور . ثم اننى كنت أشعر اننى ، رغم كل شىء ، لا أســـتطيع ان أمنع نفسى عن حب امى فى السر . وادركت بعد ذلك ان كثيرا من الاطفال قد يفقدون مشاعر الرحمة بشكل فظيع ، وأنهم اذا أحبوا شخصا احبوه وحده ولم يعبأوا بمن عداه . كذلك كانت حالى أنا .

وكان يسيطر على منزلنا الحقير ، فى بعض الاحيان ، صمت رهيب يدوم أسابيع برمتها ، وذلك حين يسأم أبى وأمى مشاجراتهما . كنت أعيش بينهما حياتى كلها دون ان أنبس بكلمة ، غارقة فى أفكارى وحزنى ، ساعية وراء خيالات أحلامى . وكنت ، لفرط ما تأملتهما ، افهم مايكن كل منهما للآخر ، وأفهم هذا البغض الاصم المستمر الذى يرين بينهما ، وأفهم هذا العار اللذين يعيشان بينهما تلك الحياة الفاسدة فى كوخنا الحقير .

وطبيعى ان أفسر ذلك كله على النحو الذى أستطيعه ، ما دمت أجهل اسبابه ولا أعرف نتائجه . لقد كان يتفق لى خلال سهرات الشتاء الطويلة ان أظل قابعة فى ركنى ساعات كاملة اتأملهما . وكنت احاول وأنا اطوف بصرى فى وجه أبى ان احرز ما يفكر فيه ، وما يشغل باله . وكان وضع أمى يدهشنى فى بعض الاحيان ادهاشا يبلغ حد الفزع : كانت تسير فى الغرفة جيئة وذهابا خلال وقت لا ينتهى ، وكان يتفق لها ذلك حتى فى الليل ، حين يمضها الارق ، وكانت تدندن وتشير بيديها كأنها وحدها ، وتارة تضع يديها على صدرها ، وتارة تعضهما وقد تملكها يأس رهيب ، وفى بعض الاحيان تجرى دموعها على وجهها ، ربما دون ان تعلم لذلك سببا ، فقد كانت تفقد وعيها فى بعض الاحيان . لقد كانت تعانى مرضا خطيرا أهملته اهمالا تاما .

وازدادت وطأة وحدتى وصمتى حتى أصبحت لا أجرؤ على ان اخرج منهما . وانقضت سنة كاملة على تيقظ

شعورى ، وعلى استرسالى فى التأملات والأحلام ، وعلى تمزقى صامتة بين مطامح غامضة نشأت فى بغتة . واصبحت متوحشة كأنما أنا عشت فى وسط غابة . واخيرا انتبه أبى الى وضعى هذا ؛ فاستدعانى وسألنى لم أثبت فيه نظرى الى هذا الحد . ولا ادرى الآن بم أجبته . الا أنه ، بعد لحظة من تفكير ، وعدنى ، وهو يداعب يدى ، ان يحضر لى كتاب الابجدية فى الغد ، وأن يعلمنى القراءة .

وانتظرت هذا الكتاب بفارغ صبر ، وحلمت به الليل كله ، دون ان أدرك ما هى الابجدية على وجه الدقة . وفى اليوم التالى بدأ أبى يعلمنى القراءة . وفهمت ما يطلب الى فى طرفة عين ، وتقدمت فى دروسى بخطى سريعة ، لعلمى ان ذلك يسر ابى . وكانت تلك اسعد مرحلة فى طفولتى البائسة . وحين كان أبى يثنى على سرعة فهمى ، ويداعب راسى ويقبلنى ، كنت أطفق ابكى من شدة الفرح .

وازداد أبى حبا لى شيئا بعد شىء . واصبحت أجرؤ على أن اكلمه ، واصبحنا كثيرا ما نمضى نثرثر معا خلال ساعات طوال . وكان يتفق لى ان لا أفهم شيئا مما يقول ، ولكننى كنت اتظاهر بفهم كل شىء ، خشية ان يظن اننى اضيق بحديثه . واعتاد ان يقضى السهرة معى ، فأصبح يعود الى البيت عند الغروب ، فما ان يصل حتى أحمل ابجديتى وألحق به . فكان يجلسنى امامه على المقعد ، حتى اذا فرغنامن الدرس اخذ يقرأ لى بصوت عال . وكنت

لا أفهم شيئا مما يقرأ . الا اننى كنت أضحك بدون انقطاع ، لاعتقادى بأن ذلك يسره سرورا عظيما . ولم اكن مخطئة فى اعتقادى ذلك : فقد أولع بى حقا ، وكان يفرحه ان يسمعنى مغرقة فى الضحك . وفى ذات مساء ، قص لى ، بعد الدرس ، حكاية من حكايات الجن . وكانت تلك أول حكاية أسمعها . وغمرتنى هذه الحكاية بفيض من الفتنة والسحر . على ان خيالى لم يكن فى حاجة الى مثلها ليفتتن ويسحر . وكل مافى الامر اننى تقبلت الآن هذه الحكاية على انها جد ، وخلقت من الوهم واقعا . فاذا البيت ذو الستائر الحمر يتراءى لى ، لا ادرى كيف ، واذا الشخصية الاساسية فى الحكاية تتقمص أبى وهو يقص لى الحكاية ، واذا أمى تظهر لتحول بيننا وبين السفر لا ادرى الى اين ، واذا انا اعيش مع احلامى الرائعة وقد حم رأسى وغلى برؤاه العجيبة المستحيلة . وتداخل هذا كله وتشابك ، ثم لم يلبث ان كون سديما لا شكل له ، سديما جعلنى ، خلال مدة من الوقت ، أفقد صوابى وأفقد شعورى بالواقع ، واعيش بين السحب .

واحرقتنى رغبة قوية فى أن أسأل أبى عما يخبئه لنا المستقبل ، عما ينتظر هو نفسه ، عن الأمكنة التى سيقودنى اليها ، عن الموعد الذى سنترك فيه بيتنا الحقير . كنت واثقة ، من جهتى ، أن هذا كله لن يتأخر كثيرا ، ولكن كيف وعلى أية صورة ؟ عبثا حاولت ان أبحث عن جواب على هذا السؤال المرهق . وكان يتراءى لى فى بعض اللحظات ؛

ولا سيما أثناء السهرة ، أن ابى سيطلب الى فجأة ، بحركة خفية ، أن امضى الى المر ، فاذا أنا أنهض خلسة ، دون أن تلاحظ أمى ذلك ، فأتنـــاول ابجديتى عابرة ، وأتأبط اللوحة (وهى صورة مطبوعة لا قيمة لها كانت متدليــة على جدار الغرفة بدون اطار منذ زمن لا أول له ، وكنت قد عزمت على ان احملها معى) ، ثم نمضى دون أن نحدث ضجة ، نمضى الى غير رجعة ، لا الى البيت ولا الى أمى . وذات مرة ، لم تكن أمى فى البيت ، فأردت انتهاز لحظـة رأيت أبى فيها فرحا جدا (يتفق له ذلك بعد ان يحتسى قليلا من الشراب) ، فاقتربت منه لأدير الحديث حـــول هذا الموضوع الحبيب الى . وسرعان ما ظفرت باضحاكه . عندئذ أحطت عنقه بذراعى ، وشددت نفسى بقوة اليه ، ورحت اسأله (وقد أخذ قلبى يخفق من شدة الخوف مما سأقوله من امور سرية رهيبة) رحت أسأله فى تمتمة وفى كلام متهدج ، عن المكان الذى سنمضى اليــه ، وعن موعد السفر هل هو قريب ، وعما سنحمله معنا ، وعن حياتنا كيف ستكون ، وعن البيت ذى الستائر الحمر هل نسكنه ؟

ــ اى بيت ؟ أى ستائر حمر ؟ ماذا تقولين ايتها الحمقاء الصغيرة ؟

وشعرت برعب لم اشعر به من قبل ، وأخذت أشرح له أننـــا لن نبقى هنا فى هذا البيت الحقير بعد موت أمى ، وانه سيأخذنى بعد موتها الى مكان آخـــر نعيش فيــه سعيدين ، غنيين . واكدت له أخيرا انه هو الذى وعدنى

بذلك . وكنت على يقين ، وانا أقول له هذا الكلام ، من أن أبى قد حدثنى عن هذه الاشياء ، أو أننى قدرتها تقديرا على الاقل .

واردف أبى يقول :

ــ أمك ؟ تموت ؟ حين تموت ؟ ماذا تقولين أيتها البلهاء الصغيرة البائسة ؟

قال ذلك وهو ينظر الى مشدوها ، مقطبا ما بين حاجبيه الكثيفين المبيضين ، مكفهر الوجه فجأة .

ثم وبخنى ، وظل مدة طويلة يقرعنى ويقول اننى طفلة بلهاء لا أستطيع أن أفهم شيئا .

لست أتذكر الآن ألفاظ التأنيب التى صبها على رأسى ، ولكن استياءه كان شديدا جدا .

على اننى لم أفهم قوله ، ولا فهمت هذا الحزن الذى شعر به حين ادرك اننى أصغيت الى كلامه وترجمت الى لغتى الخاصة عبارات البغض التى كان يكيلها لأمى .

ومهما يكن من أمر سلوكه حينذاك ، ومهما تكن آراؤه الشخصية السيئة فى أمى ، فمما لاشك فيه أن كلامى قد شدهه . **أما أنا فاننى لم أستطع ان افهم غضبه ، وشعرت بحزن مر ، وانفجرت باكية ، واعتقدت أن ما ينتظرنا هو من الخطورة بحيث لا يجوز لى ، أنا الطفلة الغبية ، ان اتحدث عنه ولا أن افكر فيه . على اننى ان لم أفهم شيئا من غضب أبى ، فقد شعرت أننى أهنت امى** ، ولو ان شعورى هذا كان غامضا مبهما ، حتى ان الخوف والارتياع

بلغا منى مبلغا جعل الشك ينشب أظافره فى أعماق نفسى . وحين رآنى أبى باكية معذبة ، اخذ يواسينى ، ومسح دموعى بكمه ، وأمرنى أن أكف عن البكاء . وبقينا بعد ذلك جالسين مدة من الزمن صامتين ، وكان باديا على وجه أبى أنه يفكر ، وقد تقضبت أساريره . ثم اخذ يتكلم من جديد ، الا أن كل ما قاله بدا لى غير واضح ، رغم ما حاولته من تركيز انتباهى ، والكلمات القليلة التى بقيت فى ذاكرتى الى الآن من حديثه تجعلنى أستنتج أنه تحدث عن مواهبه العظيمة ، عن كونه فنانا كبيرا ، عن أن الناس لايفهمونه ، الخ . ومازلت أذكر أنه سألنى هل أفهم مايقول، فلما أجبته بما يرضيه حملنى على ان أكرر على مسامعه أنه موهوب فقلت « موهوب » .. وكاد يبتسم لدى سماعه هذه الكلمة ، ولعله ابتسم لانه رأى من المضحك أن يتحدث معى فى موضوع خطير فى نظره الى هذا الحد . وانقطعت محادثتنابوصول كارل فيودروفتش . وما لبثت ان استعدت مرحى واخذت أضحك ، حين قال لى أبى وهو يشير اليه :

ــ هل ترين ؟ هذا كارل فيودروفتش ! انه لايملك ذرة من موهبة !

كان كارل فيودروفتش أنسانا عجيبا . مازلت أتخيله كأننى رأيته بالامس . (ولا عجب ، فان الناس الذين عرفتهم فى حياتى حتى ذلك الحين كانوا قليلين) . وكان الرجل ألمانيا ، أتى الى روسيا تهزه رغبة شديدة فى الانتساب الى هيئة الباليه ببطرسبرج . الا ان رقصه كان من الرداءة

بحيث لم يمكن أن يسند اليه فى الفرقة أى دور مهمـا يكن ثانويا ، على انهم كانوا يستخدمونه أحيانا فى بعض الادوار الجماعية ، مع فرسان فيرون مثـلا ، الذين يبلغ عـددهم العشرين وعليهم أن يصرخوا معا فى لحظة من اللحظات هاتفين وفى أيديهم خناجر من ورق مقوى : « لنمت فى سبيل الملك » . ولكن ما لاشك فيه أنه ليس على وجه الارض ممثل واحد بلغ شغفه بدوره مثلما بلغ شغف كارل فيودروفتش بدوره !

على أن أفظع تعاسة فى حياته كلها هى انه لم يستطع ان ينخرط فى هيئة الباليه . وكان يعتقد ان فن الرقص يفوق جميع فنون الدنيا ، وهو من هذه الناحية يحرص على فنه حرص ابى على كمانه . وقد تصادق الرجـلان حين كانا يعملان معا فى المسرح ، ومنذ ذلك الحين لم يدع هذا الممثل البسيط أبى أبدا . فكانا يلتقيان فى كثير من الاحيان ، يتفجعان معا على حياتهما المحطمة ، ويشكوان غدر البشر . ولقد كان هذا الالمانى أكثر النـاس عاطفية ، فكان يحمـل لابى أعنف مشاعر الصداقة وأخلصها . الا ان ابى لم يكن يقدره كثيرا ، ولو انه كان يحتمله لانه لم يكن له صديق غيره فى ذلك الحين . ثم ان ابى كان يرفض ، لتعصبه أن يسلم بأن الرقص فن من الفنون . وكان ذلك يجرح كبرياء الالمانى المسكين الى حد البكاء . فما يكاد هذا البائس يتحمس للرقص حتى يأخـذ ابى يسخر منه ، ويستهزىء بفنه ، ويمس بذلك وترا حساسا فيه . ولقد سمعت « ب » فيما بعد يتحدث كثيرا عن كارل فيودروفتش هذا ، وقد روى لى كثيرا من التفاصيـل عن

صداقة هذين الشخصين اللذين لم يخلق أحدهما للآخر ، واللذين كانا اذا احتسيا قليلا من الخمر معا ، يذرفان الدموع على حظهما العاثر وعلى ان الناس لا يفهمونهما !

وكنت اذا رأيتهما يبكيان آخذ فى الشهيق والنحيب ، أنا أيضا ، دون سبب يدعو الى ذلك . وكان ذلك يقع فى غياب أمى دائما . لقد كان الالمانى يخافها خوفا كبيرا ، حتى أنه كان اذا جاء قبع فى الممر مدة ، الى أن يخرج أحدنا ، فاذا علم ان أمى موجودة فى البيت ، طار لبه من الخوف وهرب يتدحرج على السلم بسرعة : وكان يأتينا دائما بقصائد ألمانية تنال اعجابه وتستفز حماسته ، فيأخذ ينشدنا اياها بصوت عال ، ثم يترجمها الى الروسية ترجمة خرقاء لنفهمها . وكان ذلك يفرح أبى كثيرا ، ويجعلنى أضحك فى بعض الاحيان ضحكا قويا . وفى ذات مرة وقع بين أيديهما كتاب روسى أعجبا به كلاهما أيما اعجاب بل افتتنا به ، حتى انهما كانا كلما التقيا بعد ذلك يعيدان قراءته . وكان هذا الكتاب ، فيما أذكر ، درامة شعرية لمؤلف روسى شهير . وقد رسخت الأبيات الأولى من هذه الدرامة فى ذاكرتى رسوخا قويا ، حتى أننى بعد انقضاء سنين كثيرة على ذلك صرت كلما وقع هذا الكتاب بين يدى مصادفة أتعرف عليه بلا عناء . وكانت هذه الدرامة تدور حول رسام كبير يدعى « جرينارو أو لاكوبو » ، يشكو حظه الشقى ويصرخ فيما يصرخ قائلا : « ان الناس لا يعرفون قيمتى » ، ثم يصرخ فى موضع آخر قائلا : «ان الناس يعرفون قدرى» ،

وفى موضع يقول : « ليس لى من موهبة » ، وفى موضع آخر يقول : « ان لى مواهب عظيمة » . وخاتمة الدرامة محزنة . ولا شك أن هذا الكتاب ليس له من قيمة . غير أنه – وتلك هى المعجزة – كان يفعل فعل السحر فى هذين القارئين اللذين يجدان بينهما وبين بطله الرئيسى صفات مشتركة كثيرة . وكان كارل فيودورفتش يبلغ من الانفعال انه يقفز من مكانه ، ويعدو الى الطرف الآخر من الغرفة ، ثم يتجه الى (وكان ينادينى « مادموازيل ») والى أبى ، متوسلا الينا ، وقد تفجر الدمع من عينيه . أن نكون جمهورا له نرى رقصه ونحكم عليه . ثم يأخذ يقوم بأنواع شتى من خطوات الرقص ، صارخا فينا أن نعلن رأينا فى رقصه صراحة : هل هو فنان أم لا ؟ هل يستطيع أحد أن يزعم أنه ليس بموهوب ؟ **وكان ابى فى مثل هذه الأحوال يأخذه مرح مباغت ، ويومىء الى بعينيه خلسة لينبئنى بأنه سيسخر من الألمانى ، وبأن الامر سيكون مضحكا جدا . وكان تنتابنى رغبة فى الضحك مجنونة ، حتى يشير ابى الى بيده مهددا ، فأمسك عن الضحك .** وما زلت حتى الآن لا أستطيع ان أتذكر هذه المشاهد دون أن اضحك . وما زلت أرى المسكين كارل فيودوروفتش كأنه أمامى : انه قصير القامة ، نحيل مفرط فى النحول . مبيض الشعر ، انفه كبير احمر اشبه بمنقار الغراب ؛ اما ساقاه فمقوستان على نحو بشع جدا ، وكان مع ذلك يتباهى بشكلهما الجميل ، حتى لقد كان يرتدى سروالا

ضيقا يلتصق بهما ابرازا لمفاتنهما . وحين كان يتجمد على حركة أخيرة ، مادا يديه نحونا ، مبتسماابتسامة الراقصين على المسرح حين يفرغون من احدى رقصاتهم ، كان أبى يظل صامتا لحظـــة من الزمن ، كأنه عزم على ان لا يعلن رأيه . الا أنه كان يفعل ذلك عمدا ليدع الراقص فى وضعه ذاك ، مترنحا على قدميه ، جاهدا ان يحافظ على توازنه فى كثير من العناء . واخيرا يلتفت أبى الى فى هيئة رزينة رصينة ، كأنما ليدعونى الى ان أكون شاهدا على حكمـه الصادق الذى لا تحيز فيه ، وتلك هى اللحظة التى كان فيها الراقص يثبت بصره فى أنا أيضا ، وقد فاضت عيناه بمعانى الحياء والتوسل ، وأخيرا يقول له ابى ، متظـــاهرا بالاستياء من الاعتراف بالحقيقة المرة :

ــ كلا ، يا كارل فيودوروفتش . لم تتقنها بعد !

وعندئذ يطلق كارل فيودوروفتش من أعماق صدره آهة حرى ، الا انه يتجلد ، ثم يطلب الينا بحركات سريعـة ان ننتبه اليه مرة أخرى ، زاعما ان الحظ لم يحالفه فى المرة الأولى ، متوسلا ان نصبر عليه ونصدر حكمـــنا فى هذه المرة الجديدة . ثم يركض من جديد الى الطرف الآخر من الغرفة . وكان فى بعض الاحيان لفرط حماسته يبلغ من شدة الوثب ان رأسه يصـطدم بالسقف ، ويحدث له ألما شديدا جدا ، الا انه كان يحتمل الألم ببطولة ، كاسبارطى، ثم يتجمد مرة أخرى فى وضع من الاوضاع ، مبتسما ، مادا يديه نحونا ، طالبا أن نصدر رأينا فى رقصته هذه المرة . الا

أن أبى كان لا يعرف الرحمة ، فكان يجيب بنفس اللهجة الساخرة التى أجاب بها فى المرة الأولى ويقول :

ــ كلا ، يا كارل فيودوروفتش ، لم تحسنها بعد ، رغم كل ما عملت !

وكنت عندئذ لا أستطيع ان أضبط نفسى ، فأطلقها قهقهة مجلجلة يرد عليها أبى بقهقهة مثلها ، ويشعر كارل فيودوروفتش فجأة أننا انما نسخر منه ، فيحمر وجهه خجلا ، ويقول لابى وقد فاضت عيناه بالدموع وسرت فى لهجته عاطفة عميقة مضحكة فى آن واحد ، عاطفة كانت تحملنى بعد ذلك على أن أرثى لحاله :

ــ انك لست بصديق .

ثم يتناول قبعته ، ويهرب وهو يقسم أغلظ الايمان انه لن يعود أبدا . الا أن هذا النوع من المخاصمات لم يكن يدوم طويلا ، فاذا بصاحبنا يعود بعد بضعة أيام ، واذا بالصديقين يستأنفان قراءة تلك الدرامةالتى يحبانها ، واذا بالدموع تترقرق من جديد ، واذا الساذج كارل فيودوروفتش يطلب الينا أن نكون حكما بين مواهبه وبين الجمهور ، ولكن بعد أن يتوسل الينا أن نكون جادين فى الحكم ، كما يليق بأصدقاء مخلصين ، بدلا من ان نسخر منه .

وفى ذات مرة أرسلتنى امى الى الدكان اشترى لها شيئا من الأشياء ، وعدت وانا امسك بالنقود الصغيرة التي ردها لي البائع ، فلقيت ابي هابطا علي السلم ،

فابتسمت له كما كنت أبتسم كلما لقيته ، وكنت فى الواقع أعجز من ان لا ابتسم له . الا انه وقد انحنى على يريد تقبيلى ، لمح النقود التى أقبض عليها بيدى - (نسيت أن اذكر اننى كنت تعودت ان أقرأ فى وجهه ما يدور فى خلده، حتى اصبحت ادرك رغباته من اول نظـرة . وكنت اذا رأيته حزينا ينهشنى الالم نهشا . وكان حزنه يزداد حين تفرغ يده من الدراهم فراغا تاما ، فما يستطيع أن يحتسى قليلا من الخمر ، بعد أن اصبح الكحول حاجة لا يستغنى عنها) - فى تلك اللحظة التى لقيته فيها على السلم لاحظت ان به شيئا خاصا . كانت نظرته قاسية ، وكانت عينـاه متجمدتين ، حتى أنه لم يرنى فى اللحظة الاولى . الا انه حين رأى النقود البراقة التى امسكها بيدى ، احمر وجهه فجأة ، ثم شحب ، ثم مد يده ليأخذها ، ثم ما لبث ان كبح حركته هذه . واضح ان صراعا قام فى نفســـه . وكأنما سيطر أخيرا على نفسه ، فأمرنى أن اصعد ، وهبط هـو بضع درجات على السلم ، الا انه توقف بعد ذلك فجأة ، ونادانى .

لقد كان فى حالة انزعاج فظيع .

- اسمعى يانيتوتشكا . أعطينى هذه النقود . وسأردها اليك فيما بعد . ستعطين اباك هذه النقود يانيتوتشكا ، أليس كذلك ؟ انك ابنة طيبة ، أليس كذلك يا نيتوتشكا ؟

كنت كأنما أوجست أنه سيفعـل ذلك . الا أن صـورة الغضب الذي ستصبه أمي على رأسي ، وخوفي ، ولاسيما

خجلى عليه وعلى نفسى ، كل هذا صدنى عن ان امد اليه المال . ولاحظ هو ذلك فورا فبادر الى القول :

ـ على كل حال ، لا داعى ، لا داعى ..

ـ بل خذ يا بابا ، سأقول لأمي أنني أضعته ، سأقول ان أبناء الجيران اختطفوه منى !

ـ حسنا ، حسنا . كنت أعرف ذلك ، اعرف انك ابنة طيبة ذكية .

قال ذلك ، دون أن يكتم فرحه حين احس بالدراهم فى يده ، وعادت الابتسامة الى شفتيه المرتعشتين ، واضاف :

ـ انك ابنة صغيرة رائعة ، انت ملاك صغير . أنت ملاكى الصغير . هات يدك الصغيرة ..

وتناول يدى يريد تقبيلها ، الا اننى انتزعتها منه بقوة . واجتاحنى شعور غريب بالشفقة يمازجه شعور بالخجل والعار ، اخذ يعذبنى !.. فتركت ابى دون أن استأذنه ، وركضت ركضا حتى بلغت باب البيت ، كأنما يدفعنى الخوف دفعا . ودخلت وقد تملكنى ذعر مجنون .
كان خداى كأنهما من جمر ، وكان قلبى يخفق خفقانا عنيفا . لم يكن شيء من هذا قد وقع لى قبل الآن . ومع ذلك زعمت لامى ، بجراة ، ان القطعة النقدية سقطت من يدى فى الثلج ولم استطع ان اجدها . وكنت أتوقع ان تضربنى امى ، الا انها لم تضربنى ، ولو انها استاءت استياء شديدا ، أخرجها عن طورها فى اول الامر ، لشعورها بفقرنا الفظيع ، فأخذت تقرعني وتؤنبني ، لكنها ما لبثت

ان استعادت رباطة جأشها ، واكتفت بأن تلـومنى على اهمالى ، وقالت اننى لو كنت احبها حقا لعـرفت كيف احافظ على دراهمها . وآلمتنى هـذه الملاحظة أكثر من الضرب . لقد كانت أمى تعرفنى حق المعرفة ، فلاحظت ان حساسيتى اصبحت مرهفة الى حد مرضى ، وانها ان لامتنى على هذا النحو المرير ، واتهمتنى بأننى لا أحبها ، كان ذلك أوقع فى نفسى ، وأولى بأن يجعلنى فى المستقبل اكثر تيقظا وانتبـاها .

وعند هبوط الليل ، فى الساعة التى يعود فيها أبى الى البيت ، مضيت الى الممر انتظره على عادتى . كنت فى هذه المرة مضطربة اشد الاضطراب . كانت الندامة تملأ كيانى كله وتقلقنى اعنف القلق. وعاد ابى اخيرا ، وسررت بعودته سرورا كبيرا ، كأنما هو يحمل الى العزاء والسـلوى . وكان ثملا بعض الشىء ، فقد نظر الى حين رآنى نظـرة حائرة وغريبة فى آن واحد ، وبعد ان قادنى الى ركن من الممر القى على باب الغرفة نظرات خائفـة ، واخرج من جيبه قطعة من الحلوى اشتراها لى ، ثم حذرنى من ان أسرق بعد الآن شيئا من نقود أمى ، قائلا ان هذا أمر سىء معيب . واضاف ان هذا حدث فى هذه المرة لأن بابا كان فى حاجة ماسة الى بضعة دراهم ، وان بابا سيعيد هـذه الدراهم فى يوم ما ، واننى أستطيع يومئـذ أن أقول لأمى اننى وجدت ما أضعته ، وان سرقة الدراهم من ماما شىء فظيع ، ينبغى ان لا اعود اليه قط ، بل اضاف انه سيسهر

على هذا الامر بعد الآن ، واننى ان أطعته فسوف يأتينى بحلوى اخرى .. بل ذهب الى أبعد من ذلك وقال ان على ان ارثى لحال أمى ، المريضة ، البائسة ، التى تعمل وحدها لتطعمنا نحن الثلاثة . واستمعت الى كلام ابى ، وانا ارتجف من الخوف ، وقد فاضت دموعى . كان انفعالى من القوة بحيث لم استطع أن اجيب ولا أن اتحرك. ثم دخل البيت بعد ان أمرنى بأن لا ابكى وبأن لا اذكر شيئا مما حدث . ولاحظت عندئذ انه كان فى حالة انزعاج هائل، هو الآخر . وقضيت السهرة كلها فزعة ، كأنما انا اترقب خطرا كبيرا ، ولأول مرة لم اجرؤ على ان انظر الى أبى ، وعلى أن أقترب منه . وكانت امى تسير فى الغرفة جيئة وذهابا ، وتحدث نفسها كأنها غائبة عن وعيها ، على عادتها . كانت وطأة المرض عليها فى ذلك اليوم أقسى ، كانت تعانى نوبة حادة من الاوجاع . وأخيرا انتابتنى حمى من شدة الانفعال الاصم الذى كنت أعانيه . وحين أظلمت الغرفة لم أستطع أن أنام ، وهاجمتنى احلام مزعجة مخيفة ، فأخذت أشهق باكية . واستيقظت امى على اصوات شهيقى ، فنادتنى اليها وسألتنى عما بى . وبدلا من أن اجيب ، ازداد شهيقى قوة . عندئذ اشعلت أمى الشمعة ، واقتربت منى تحاول تهدئتى ، لاعتقادها بأن حلما أفزعنى، واخذت تقول : « كفى ، كفى ، ايتهاالحمقاء..تبكين بسبب حلم ؟ كفى ، كفى . » ثم قبلتنى وأرادت أن تأخذنى الى سريرها كى أنام الى جانبها . ولكننى رفضت . لم استطع

ان اضع ذراعى على عنقـها ، ولا ان اتبعها . كان عذابى يتجاوز كل الحدود ، وودت لو اعتـرف لها بالحقيقة ، وما كنت لاستطيع ان امسـك عن ذلك ، لولا اننى تذكرت أبى ، وتذكرت انه حذرنى من افشاء السر !

وقالت امى ، وهى ترتب سريرى وتغطينى بمعطفهـا العتيق ، اذ لاحظت اننى ارتعش من الحمى :

ـ مسكينة أنت يا نيتوتشكا ! أعتقد انك مريضة مثـل أمك .

ثم تأملتنى بحزن شديد لم استطع معـه أن احتمـل نظرتها ، فأغمضت عينى ، واستدرت الى جهة الحائط . لا أدرى متى نمت ، الا ان صورة أمى المسكينة وهى تكلمنى ظلت ماثلة أمامى وأنا بين النوم واليقظة . لم أكن شعرت قبل ذلك بألم ثقيل الى هذا الحد . كان صدرى منقبضا انقباضا خانقا ، الا اننى شعرت بتحسن فى صباح اليـوم التالى . واخذت اتحدث مع ابى دون ان اشير الى حوادث الامس ، لشعورى بأن اشارة كهذه لن تسره . ومالبث أن انبسطت اساريره ، فقد كان هو الآخر ينظـر الى فى قلق أصم ، حتى اذا رآنى مسرورة ، عاد اليه صـفاؤه بل عاد اليه مرح ساذج . **وبعد قليل خرجت أمى من البيت فلم يستطع أبى ان يكبح جماح نفسه فأخذ يقبـلنى بقوة حتى كدت اجن من شدة الفرح ، فصرت ابكى وأضـحك فى آن واحد !..** ثم اخبرنى انه ، مكافأة على أننى كنت ابنة طيبة عاقلة ، سيرينى شيئا جميلا جدا ، شيئا سيسرنى جدا

أن اراه . ثم فك ازرار سترته وأخرج مفتاحا صفيرا كان معلقا على رقبته بخيط أسود . ثم القى على نظرة غريبة كأنما يريد ان يقرأ فى عينى السرور الذى كان لابد – فى رأيه – أن أشعر به . وفتح الصندوق واخرج منه ، فى كثير من الحذر ، علبة سوداء ذات شكل غريب ، لم أرها قبل ذلك أبدا . ولمس العلبة بنوع من الرهبة غير مألوف فيه ، وامحت الابتسامة من وجهه ليحل محلها فجأة مظهر الرصانة والجلال . واخيرا فتح العلبة الغريبة بالمفتاح ، واخرج منها شيئا غريب الشكل لم اره قبل ذلك ايضا . وتناول الشىء بيديه فى عناية أشبه بالاجلال قائلا : ان هذا هو كمانه . ثم حدثنى بصوت منخفض رصين حديثا لم افهمه . والشىء الوحيد الذى علق بذهنى هو ما كنت اعرفه من قبل من ان ابى فنان ، ومن انه موهوب ، ومن انه سيعزف على كمانه فى يوم من الايام – بعد هذا اليوم او قرب – ومن اننا سنصبح يومئذ اغنياء نعيش حياة سعيدة لا يكدرها شىء . وسالت دموع ابى على خديه وتملكنى أنا انفعال شديد ، واخيرا طبع على كمانه قبلة رقيقة ثم مده الى لأفعل مثلما فعل . ثم لاحظ اننى أتمنى لو أرى الآلة عن كثب ، فأجلسنى على سرير أمى ، ووضع الآلة بين يدى . الا اننى شعرت انه كان يرتجف خوفا على الآلة ان اكسرها . ومع ذلك نقرت على الاوتار نقرا خفيفا ، فأخرجت صوتا ضعيفا ، فرفعت نظري الى ابى قائلة :

– هذه موسيقى ..

فقال ، وهو يفرك يديه ، وقد أشرق وجهه فرحا :
ــ نعم ، نعم ، موسيقى . انك صغيرة ذكية ، شجاعة .
غير اننى لاحظت بوضوح ، رغم مدائحه وحماسته ، انه يرتعد خوفا على آلته ، واستولى على الخوف انا أيضا ، فبادرت الى ردها اليه .. فأعادها الى علبتها بعناية كبيرة، واغلق العلبة ثم ردها الى مكانها فى الصندوق . ووعدنى وهو يداعب رأسى أنه سيرينى الكمان مرات اخرى كلما كنت عاقلة مطيعة مثلما انا الآن .

وهكذا طرد الكمان حزننا كلينا . ومع ذلك همس أبى فى اذنى ، حين اتى المساء ، ان لا انسى ما اوصانى به أمس.
على هذا النحو كبرت فى بيتنا البائس . وكان حبى لابى (والأفضل ان اقول ((عشقى)) لابى ، لاننى لا اعرف كلمة قوية تستطيع ان تعبر تعبيرا كاملا عن هذه العاطفة الجارفة التى كانت تعذبنى وتدفعنى نحو ابى دفعا) اقول : كان عشقى لابى يشتد ويشتد حتى اصبح نوعا من الهوى المرضى !.. صرت لا أجد فى الحياة من متعة غير أن أفكر فيه ، وان احلم به .. صرت لا أفكر الا فى شيء واحد ،هو ان أعمل كل ما استطيع عمله لاوفر له ولو اقل السرور .
كم من مرة انتظرت عودته على السلم ، وأنا ارتجف من البرد ، لا لشيء الا ان احس وجوده وأراه قبل الموعد بلحظة . وكنت اجن من الفرح حين يتفق له ان يمسنى بمداعبة عابرة . على ان فتور عاطفتى نحو امى كثيرا ما كان يسبب لى حزنا أشبه بالعذاب . كنت اذا نظرت اليها

أمتلأت نفسى هولا . الا اننى لم اكن استطيع ان أظل محايده فيما كان يقوم بين أبوى من خصومات لا تنقطع . كان لابد لى أن أختار احدهما وان اتحزب له . وقد تحزبت لهذا الانسان نصف المجنون ، لانه كان فى نظرى انسانا بائسامضطهدا ، ولانه قد خاطب خيالى منذ البداية. ومع ذلك ، من يدرى ؟ لعلى تحزبت له لغرابته الشديدة، وحتى لغرابة مظهره ، فان هذا المجنون لم يكن صارم الوجه حزين الملامح كأمى ، بل كان يضحك ويهرج كأنه طفل ، ولعلى احببته لاننى لم أكن اخشاه كما أخشى أمى، ولاننى لم أكن احترمه كما احترم امى ، بل كنت انظر اليه كأنه ند لى ، من أترابى .. حتى لقد شعرت شيئا فشيئا اننى سيطرت عليه ، اننى اخضعته ، واننى اصبحت له حاجة لا غنى عنها . ولم يصبنى من ذلك زهو وغرور ، ولكنه الشعور بالظفر ، وكنت من شدة تقديرى لمنزلتى فى نفسه بحيث كدت فى بعض الاحيان ان ادل عليه ، واتظرف له. الحق ان فى تعلقى الغريب هذا شيئا ممايذكر بالروايات.

الا ان هذه الرواية لم يقدر لها ان تدوم طويلا ، فاننى ما لبثت ان فقدت أبى وأمى . لقد انتهت حياتهما بفاجعة فظيعة مازالت ذكراها محفورة فى نفسى ترهقها وتمضها ، واليكم كيف وقعت الفاجعة :

- ٣ -

فى تلك الفترة ، راج فى بطرسبرج ان العازف الشهير على الكمان «س» سيصل الى العاصمة وشيكا ، فأحدث هذا النبأ فى بطرسبرج ضجة كبرى ، وأهتز له العالم الموسيقى اهتزازا كبيرا ، واقبلت المغنيات والشعراء والرسامون ومحبو الموسيقى يختطفون تذاكر الحفلة اختطافا ، بل وأقبل على ذلك أناس ممن يصرحون فى كبرياء متواضعة بأنهم لا يفهمون من الموسيقى شيئا !.. كانت صالة الحفلة لا تتسع لعشر هؤلاء المتحمسين الذين كانوا على استعداد لأن يدفعوا ثمن تذكرة الدخول خمسة وعشرين روبلا . ان شهرة « س » ، وشيخوخته التى يتوجها المجد ، وموهبته النضرة التى لم تجففها الأيام ، وماذكر عنه من انه لم يمسك قوسه أمام الجمهور الا نادرا منذ زمن ، ومن انه يقوم بآخر جولة له فى اوروبا قبل ان ينقطع عن العمل نهائيا ، كل ذلك كان له أثره فى حفز الناس الى حضور الحفلة . الخلاصة : لقد اهتزت بطرسبرج لهذا النبأ اهتزازا قويا عميقا .

وقد سبق أن قلت ان وصول كل عازف جديد على الكمان ، كل موسيقى شهير ، كان يولد فى ابى شعورا مؤلما . كان دائما أول المقبلين على سماع أى فنان يمر بالمدينة ، ليحكم على موهبته . **وكثيرا ما كان يمرضه الثناء الكثير**

على القادم الجديد ، ثم لا يجد الراحة والطمانينة الا حين يستطيع ان ياخذ على عزفه عيبا من العيوب ، فاذا هـو يطفق يذيع رايه فيه ، اينما استطاع ذلك ، فى سخرية مرة لاذعة . لقد كان هذا المهووس المسكين لا يرى فى الدنيا الا موهبة واحدة ، هى موهبته ، ولا يرى فى الدنيا الا فنانا واحدا ، هو شخصه . ومع ذلك فان وصـول «س» ، الموسيقى العبقرى ، قد أحدث فى نفسـه نوعا من الرعب. وينبغى ان نذكر هنا انه ليس بين الموسيقيين المشـهورين الذين مروا ببطرسبرج خلال السنين العشرة الأخـيرة موسيقى واحد يمكن أن تقاس موهبته بعبقرية « س » . كان أبى اذن لا يعرف شيئا البتة عما عسى أن يكون عزف موسيقى كبير عرف فى أوروبا كلها بأنه من كبار الفنانين .

وقد رووا لى انه ما ان اذيع نبأ وصـول « س » الى بطرسبرج ، حتى ظهر أبى من جديد فى كواليس المسرح ، وقالوا لى أيضا انه كان يبدو منفعلا أشدالانفعال ، وانه كان يسائل الناس ، قلقا ، عن « س » ، وعن الحفلة المـزمع احياؤها ، وهو أشد ما يكون اضطرابا . وكان ابى قد غاب عن هذه الامكنة منذ مدة طويلة ، فلما ظهر فيها من جديد اثار انتباه الناس والتفاتهم ، ثم ما لبث ان قال له احدهم مستفزا :

— اسمع يا ياجور بتروفتش ، لن تسمع فى هذه المرة ، يا عزيزى ، موسيقى « باليه » . وانما سـتسمع موسيقى تحـرمك لذة الحياة !

وقد أكدوا لى ان لونه قد امتقع لدى سماع هذه الكلمة .
الا انه حمل نفسه على الابتسام وقال :

— سنرى . ليس فى وسع غريب آت من بعيد ان يخدع الناس فى حقيقة امره مدة طويلة . اظن ان «س» قد عزف فى باريس . والفرنسيون هم الذين اذاعوا اذن صيته ، ونحن نعرف قيمة هؤلاء الفرنسيين !

على هذا النحو كان يتجمع حوله الناس ، ويأخذون فى الضحك . لقد كان المسكين يشعر بالحنق يعضه عضا ، الا انه كان يتحامل على نفسه ، ويتجلد ، ويؤكد انه ليس فى نيته أن ينتقد ، وان الانتظار لن يطول ، مادامت الحفلة ستقام بعد غد .

وقد روى لى «ب» انه ، فى ذلك المساء نفسه ، لقى الأمير «ك» ، وهو من هواة الموسيقى المعروفين الذين يفهمون الفن ويتذوقونه تذوقا عميقا ، وكان الاثنان يسيران معا وهما يتحدثان عن القادم الجديد ، فاذا «ب» يلمح ابى فجأة ، عند منعطف احد الشوارع ، واقفا امام احد المخازن يحدق فى اعلان ملصوق على البلور ، يعلن بأحرف كبيرة عن حفلة « س » .

فقال «ب» للأمير وهو يدله على أبى :

— هل ترى هذا الشخص ؟

فسأله الأمير :

— من هو هذا الشخص ؟

فأجاب «ب» :

ـ انك تعرفه . هو يافيموف الذى حدثتك عنه اكثر من مرة ، والذى اردت ان تتفضل عليه بحمايتك .

فهتف الامير قائلا :

ـ آ ... اهذا هو ؟ نعم لقد حدثتنى عنه كثيرا .. يقال انه انسان عجيب ، لكم أحب ان أسمعه .

فأجاب « ب » :

ـ كلا ، ان ذلك لايستحق العناء . ان الاستماع اليه مؤلم . لا ادرى ما هو الأثر الذى يمكن أن يحدثه فى نفسك . اما أنا فانه يمزق قلبى تمزيقا . ان حياته مأساة محزنة . اننى أعرف حقيقة نفسه . ورغم انحداره الى الدرك الأسفل، لم تمت عاطفتى نحوه موتا تاما . لقد قلت منذ هنيهة ، يا سيدى الأمير ، ان سماعه لابد أن يكون أمرا شائقا . هذا صحيح . الا انه يحدث فى النفس شعورا مؤلما قبل كل شىء . انه اولا انسان شاذ ، وهو عدا هذا مجرم ثلاث مرات : مجرم فى حق نفسه اذ افسد حياته ، ومجرم فى حق امرأته وابنته اللتين افسد حياتهما ايضا . اننى اعرفه . لو ادرك جريمته لمات على الفور .. وهذا هو الامر الفظيع فى المأساة كلها : انه منذ ثمانى سنين يكاد يدرك ذلك . وهو منذ ثمانى سنين فى صراع مع ضميره !

ـ وهو يعيش حياة بائسة ؟

ـ نعم . والبؤس سعادة له ، لانه حجة يتعلل بها ، فهو يستطيع الآن ان يزعم لكل انسان ان الفقر هو الذى يحول بينه وبين الوصول الى قمة المجد ، وانه لو كان غنيا

لاستطاع ان يتفرغ لفنه ، ولأمكن أن يعرف الناس عندئذ على الفور ، من هو وما قيمته . لقد تزوج يحدوه امل عجيب هو ان تستطيع الروبلات الالف التى كانت تملكها زوجته ان تنهضه من عثرته . لقد تصرف على هذا النحو كانسان مجرد من الحس العملى ، كشاعر ، وكان هذا شأنه فى سائر حياته على كل حال . هل تعرف ماذا يردد كل يوم منذ ثمانى سنين ؟ انه يدعى ان امرأته هى المسئولة عن جميع مبائسه ، انها هى التى تمنعه من الوصول الى المجد . ثم هو يعقد ذراعيه ويأبى أن يعمل ، ولو انتزعت منه امرأته لاصبح بلا سلاح البتة . هذه سنين ثمان لم يلمس خلالها كمانه ، لماذا ؟ لانه كلما أمسك بقوسه شعر فى أعماق نفسه انه لا شيء . حتى اذا عاد فأراح قوسه فى مكانه ، رجعت اليه آماله كلها ، واصبح واثقا من انه موهوب . ذلك انسان حالم : انه يتخيل ان معجزة ستتحقق فجأة فتجعل منه موسيقيا شهيرا . شعاره : « اما ان اكون قيصر ، واما ان لا اكون شيئا ! » .. كأنما يستطيع المرء ان يصبح قيصر فى طرفة عين !.. وحين يصبح شعور كهذا الشاغل الوحيد الذى يملأ رأس فنان ، لا يبقى هذا الفنان فنانا ، لانه يكون قد فقد الفريزة الفنية الاساسية ، اعني حب الفن للفن ، هذا الحب الذى لا شأن له بالمجد ولا بغير ذلك . انظر الى « س » مثلا : انه متى أمسك بقوسه غاب عن كل شيء فى الوجود الا الموسيقي ، والشيء الذي يحتل المكانة الاولي عنده بعد

الموسيقى انما هو المال . اما المجد فانه لا يأتى الا فى المرتبة الثالثة فيما اعتقد . انه آخر مشاغله. هل تعرف ما الذى يشغل بال هذا البائس يافيموف فى هذه اللحظة ؟ انه يكرر على نفسه هذا السؤال السخيف ، المضحك ، المحزن : أهو متفوق على «س» ام ان «س» متفوق عليه ؟ لا شىء غير هذا السؤال يشغل باله . لانه يظل مقتنعا رغم كل شىء بأنه اعظم موسيقى فى العالم !.. **ولو برهنت له على انه ليس أعظم موسيقى فى العالم فأنا كفيل لك بانه سيموت على الفور ، كأن صاعقة سقطت على رأسه ؟..** لاشىء افظع من التحرر من فكرة ثابتة ، سيما حين يكون المرء قد وقف عليها حياته كلها ، فى ايمان خطير عميق .. على ان يافيموف قد بدأ بداية صادقة فى الواقع..

فقاطعه الامير قائلا :

ـ لاشك ان مشاهدة انفعاله لدى سماع « س » ، أمر شائق .

فأجاب « ب » سادرا :

ـ نعم . بل لا . انه سيستعيد ثقته بنفسه فورا ، لأن جنونه أقوى من الحقيقة . سيجد لنفسه مهربا على الفور.

ـ تعتقد ؟

وفى هذه اللحظة وصلا الى ابى الذى اراد ان يتوارى حالا . الا ان «ب» امسك به وأخذ يكلمه . سأله هل ينوى ان يذهب الى الحفلة ليسمع «س» ، فأجاب ابى ـ بلهجة من لا يحفل بهذا الموضوع ـ قائلا انه لا يدري هل يذهب

أو لا يذهب ، وانه مشغول بأمر أهم من حفلات الموسيقيين الاجانب ، وانه سينظر فى الامر على كل حال ، وانه لا مانع عنده من الذهاب اذا وجد فى وقته ساعة من فراغ ، وانه قد يذهب مع ذلك . قال ذلك ثم القى نظـرة على «ب» وعلى الامير ، ثم ابتسم ابتسامة مصطنعة ، ورفع قبعته ، واحنى رأسه ، وتركهما زاعما أنه فى عجلة من أمره ..!

أما انا فكنت قد لاحظت اضطراب ابى منذ الليلة البارحة. وكنت أجهل سبب هذا القلق الذى عصف به ، على وجـه الدقة ، الا اننى رأيت ذلك القلق الفظيع يقضمه قضما . حتى ان امى لاحظت ذلك . وكانت يومئـذ مريضة جدا ، بل كانت لا تكاد تقوى على الوقوف على قدميها . وكان أبى لا ينى يدخل ويخرج بلا انقطاع . وفى الصباح جاءه ثلاثة أشخاص او اربعة من رفاقه القدماء ، وقد استغربت ذلك، ولاسيما انه لم يكن يغشانا أحد تقـريبا ، عـدا كارل فيودوروفتش ، بعد ان هجرنا جميع الناس منذ انقطـع أبى عن التردد على كواليس المسرح . واخـيرا جاء كارل فيودوروفتش راكضا ، لاهثا ، يحمل فى يده «برنامجا» ، كنت اشهد هذه الحركة غير المألوفة ، واصغى اليها ،بانتباه عميق ، وانا فى حالة تأثر وانفعال ، كاننى السبب فى هذا القلق الذى اقرؤه فى وجه أبى . وددت لو أعرف ما الامر ، وسمعت لاول مرة اسم « س » ، ثم فهمت انه لابد من خمسة عشر روبلا على أقل تقدير لمشاهدة حفلة «س» . واذكر ايضا ان ابى لم يستطع ان يكبح سورة اضطرابه ،

فكان يقوم بحركات كثيرة ، ويردد قائلا انه يعرف هذه العبقريات التى تأتى من البلاد الاجنبية ، انه يعرف هذه المواهب الفذة ، يعرف قيمتها ، ويعرف « س » أيضا ، يعرف انه يهودى بائس ، جاء الى روسيا ـ كغيره ـ باحثا عن المال ، وان الروسيين اناس سذج يصدقون جميع الاكاذيب ، لاسيما حين يكون الفرنسيون ملفقيها!..وكنت قد تعلمت معنى هذه الكلمات : « لا موهبة له » . وبعد ان ضحك الزائرون كثيرا ، انصرفوا الى شأنهم ، وتركوا ابى لهياجه العنيف . واردت ان اسليه عن حزنه فاقتربت منه ، وامسكت بالبرنامج وقرأت فيه بصوت عال اسم « س » . ثم نظرت الى ابى وهو جالس على الطرف الآخر من الطاولة مستغرق فى التفكير ، وقلت له ضاحكة : «لاشك ان هذا الرجل مثل كارل فيودوروفتش ، لن يخرج منه شىء حسن ، هو الآخر » .. فانتفض أبى كأنما استولى عليه خوف مفاجىء ، وانتزع البرنامج من بين يدى ، واخذ يصرخ ويضرب الارض بقدمه ، ثم تناول قبعته وهم بالخروج ، الا أنه ما لبث ان عدل عن ذلك ، والتفت الى ، ودعانى ان اوافيه فى الممر. **وهناك قبلنى واخذ يردد لى ، بنوع من الارتباك ، بنوع من الخوف لم يستطع ان يكبحه ، اننى ابنة طيبة عاقلة ، واننى لا احب له طبعا ان يتألم ، وانه يعتمد على الآن فى أمر هام . ولكنه لم يقل لى ما هو هذا الامر الهام** . على ان حديثه آلمنى ، فقد ادركت ان كلماته ومداعباته ليست صادقة ، وكان هذا وحده كافيا

لاشاعة الاضطراب فى نفسى ، وهكذا اصبح قلقى عليه عذابا ممضا .

وفى اليوم التالى – وهو اليوم الذى سبق موعد الحفلة – بدا لى أبى اثناء الطعام منهك الاعصاب محطما . لقد حدث فى نفسه تغيير رهيب . كانت نظراته تنتقل بينى وبين امى ، بغير انقطاع . ولشد ما كانت دهشتى كبيرة حين رأيته يتحدث الى امى ، ولاسيما انه كان لا يكاد يخاطبها بكلمة واحدة . وبعد ان فرغنا من الطعام لاطفنى كثيرا ، وجعل يدعونى فى كل لحظة الى الممر منتحلا مختلف الحجج ، وهناك يأخذ ينظر من حوله كأنما هو يخشى ان يقبض عليه بالجرم المشهود ، فاذا اطمأن الى انه ما من احد يراه ، طفق يداعب راسى ويقبلنى ويردد على مسامعى اننى ابنة طيبة ، واننى أحب بابا من غير شك ، واننى سأفعل كل ما يطلبه الى ما فى ذلك ريب . وقد أسلمنى هذا الى قلق لا يطاق . واخيرا ، حين دعانى الى الممر ، للمرة العاشرة ، اتضحت الامور : فى هذه المرة نظر ابى الى جميع الجهات نظرة مرتابة ، ثم سألنى وقد تقبض وجهه ، هل أعرف أين خبأت امى الخمسة والعشرين روبلا التى اتت بها فى صباح الامس ؟.. فما ان سمعت هذا السؤال حتى شعرت كأننى أموت من شدة الخوف ، الا ان ابى وقد سمع صوتا على السلم ، ارتاع فتركنى حيث انا وهرب . ولم يعد الا فى المساء ، حيث جلس على كرسى وقد بدا عليه الاضطراب والحزن وانشغال البال ، واخذ ينظر الى بنوع

من الحياء الوجل . وتملكنى خوف شديد حتى صرت احاول ان اتحاشى نظرته . واخيرا نادتنى امى ، وكانت فى السرير طوال اليوم من وطأة المرض ، فاعطتنى قطعة نقدية ، وارسلتنى اشترى لها من الدكان قليلا من الشاى والسكر. كان الشاى لا يشرب الا نادرا فى بيتنا ، اذ كانت أمى لا تسمح لنفسها بهذا الترف ، ونحن فيما نحن فيه من الفقر ، الا حين تشعر انها مريضة محمومة .. فأخذت الدراهم ، وما ان خرجت الى الممر حتى جعلت اعدو ، خشية ان يلحق بى ابى . الا ان ماكنت اخشاه قد وقع : فقد ادركنى ابى فى الشارع واعادنى الى السلم وهناك قال لى بصوت مرتعش :

– نيتوتشكا ، حبيبتى ، اسمعى ، أعطينى هذه الدراهم ، وغدا سوف ..

فارتميت على ركبتيه وأخذت أتوسل اليه قائلة :

– بابا ، بابا ، لا أستطيع . لا يجوز . لا يجوز . ان ماما فى حاجة الى الشاى . لا يجوز ان تسرق ماما . كلا لا يجوز. مرة أخرى ..

فدمدم كأنما هو يهذى :

– آ . لا تريدين ؟ لا تريدين ؟ حسنا .. الآن أتركك .. ابقى مع ماما . أما أنا فسأذهب وحدى . هل تسمعين ، أيتها الابنة السيئة ؟ هل تسمعين ؟

– بابا . خذ . ما العمل ؟ ستبكى أمى أيضا . وستؤنبنى أيضا .

قلت هذا وأنا أرتعد من الخوف ، وأضرب كفا بكف ، وأتعلق بذيله .

لم يكن أبى يتوقع هذه المقاومة . على أنه أخذ المال ، ولم يستطع أن يحتمل نحيبى ، فتركنى على السلم وهرب .

وصعدت السلم . الا أن قواى خانتنى على باب مسكننا ، فلم أجرؤ على الدخول ، لم أستطع الدخول . كنت فى حالة ذعر شديد واضطراب فظيع . كان قلبى كأنما انخلع . ووضعت وجهى بين ذراعى كما فعلت فى المرة الاولى يوم سمعت أبى يتمنى موت أمى . وبلغ منى الذعر أن أقل صوت على السلم كان يجعلنى كقطعة من الثلج ترتجف . واخيرا سمعت وقع خطوات سريعة تصعد السلم فعرفت انه أبى .

قال أبى هامسا :

ـ هذا أنت ؟

وارتميت على عنقه .

ـ خذى . خذى دراهمك ، ولست اباك بعد الآن . هل تسمعين ؟ لا أريد أن اكون اباك . اذهبى الى أمك . لا أريد أن آخذك معى .

فلما انهى هذا الكلام دفعنى عن نفسه ، وهرب مرة أخرى هابطا السلم . فركضت وراءه باكية ، أريد أن أمسك به ، وصرخت محتجة :

ـ بابا . أبت العزيز . سأفعل كل ما تريد . أنت تعلم اننى أحبك . خذ . خذ الدراهم . خذها !

الا انه كان قد غاب . كان الذعر من القوة بحيث ظللت

السهرة كلها محمومة لا أستطيع أن أتحرك . واذكر أن امى كلمتنى ، وجاءت بى الى جانبهـا ، الا اننى كنت أشبه بمن فقد وعيه ، فما أرى شيئا ولا أسمع شيئا . وأدى ذلك كله الى نوبة : فأخذت أبكى وأعوى ، وارتعبت أمى فلم تدر ماذا تصنع . ووضعتنى فى سريرها . وكنت خائفة ممـا أتوقع أن يقع بين دقيقة وأخرى ، فاذا أنا انام ، لا ادرى كيف ، متشبثة بعنقها . وانقضى الليل على هذا النحو ، فلم أستيقظ الا فى ضحى اليوم التالى ، بعـد أن غادرت أمى البيت الى عملها . ورأيت مع أبى فى البيت رجلا غريبـا ، وكان الاثنان يتحدثان بصوت عال جدا . وانتظرت أن يذهب هذا الزائر بصبر فارغ ، حتى اذا مضى وأصبحنا وحدنا ، ارتميت على عنق أبى باكية منتحبة ، أتوسل اليه أن يغفر لى سلوك البارحة ..

فسألنى بلهجة قاسية :

ـ هل تصبحين عاقلة . كما كنت فى الماضى ؟

فأجبت :

ـ نعم ، يا أبت . أعدك بذلك . سأقول لك أين تخبىء أمى دراهمها . لقد وضعتها امس مساء فى هذه العلبة ، على الرف .

فصرخ ابى منتفضا :

ـ أين ؟ أين ؟

وقفز من مكانه وسألنى مرة أخرى :

ـ أين الدراهم ، تقولين ؟

ـ ان العلبة مقفلة بالمفتاح ، يا أبت . انتظر حتى هذا المساء. سترسلنى أمى لتبديل الورقة النقدية بقطع صغيرة ، رأيت ذلك بنفسى .

ـ اننى فى حاجة الى خمسة عشر روبلا ، يا نيتوتشكا . هل تسمعين ؟ خمسة عشر روبلا فقط ! هاتيها اليوم ، وسأردها اليك غدا . وسأمضى حالا اشترى لك حلوى ، وجوزا .. ولعبة أيضا . وغدا ، غدا على التأكيد ، أرد اليك الدراهم . وسأشترى لك حلوى فى كل يوم ، اذا كنت عاقلة فأعطيتنى خمسة عشر روبلا !

ـ كلا ، يا بابا ، لا أريد حلوى . لن آكل الحلوى اذا جئتنى بها ، سأردها اليك .

قلت ذلك محتجة باكية ، وقد تمزق قلبى من القلق .

ادركت فى تلك اللحظة أن ليس فى قلبه ذرة من رحمة بى . وانه لا يحبنى ما دام لا يقيم لعاطفتى نحوه وزنا ، وما دام يظن اننى أخضع لارادته طمعا فى الحلوى !.. ومع اننى كنت طفلة ، استطعت أن أنفذ الى أعماقه نفاذا بلغ من القوة اننى شعرت منذ تلك اللحظة أن عبادتى اياه قد تسممت الى الابد . شعرت أننى لن أستطيع أن أحبه بعد الآن !.. شعرت أن بابا الحبيب القديم قد فقد نهائيا . أما هو فقد سره وعدى ، بل سحره . لقد رأى اننى مستعدة من أجله لكل شىء ، ويعلم الله ماذا كانت تعنى كلمة « كل » هذه فى خيالى ! كنت أعلم قيمة هذه الدراهم عند أمى المسكينة ، وكنت أعرف العذاب الذي ستلقاه حين تفقدها ، فكان

ضميرى يعول من اليأس . الا أن أبى لم يلحظ شيئا من ذلك . كنت افهم كل شىء . غير أن ابى كان لا يرى فى الا طفلا فى الثالثة من عمره . وتملك أبى فرح هذيانى ، ففمرنى بالقبل ، وتوسل الى أن لا ابكى ، وأكد لى ، مداعبة لخيالى ، اننا سنسافر الى مكان بعيد عن ماما فى بحر اليوم نفسه . ثم اخرج البرنامج من جيبـه ، وذكر لى أن الرجل الذى سيمضى الى سماعه هذه الليلة انمـا هو عدوه ، بل أحد أعدائه الالداء ، الا انه لن يستطيع أن ينتصر عليه . لا هو ولا غيره . لا شك أنه هو الطفل ، لا أنا ، ما دام يحدثنى بهذه اللهجة عن أعدائه !.. ولما رأى أننى ظللت صامتة لأجيب ولا أبتسم كما ابتسم عادة ، تناول قبعتـه ، ومضى ، كمن حان وقت ذهابه . الا انه قبل أن يتركنى ، قبلنى مرة أخرى. وتبسم لى ، وأشار الى اشارة الاتفاق . كأنما هو غير واثق منى كل الثقة ، فهو يريد أن يعمل ما ينبغى عمله ليمنعنى من التفكير والتردد .

***

سبق أن قلت انه تغير منذ الامس تغيرا كبيرا حتى لكأنه شخص آخر . كان لا بد له من الحصول على المال لشراء تذكرة ، مهما كلف الامر . فقد كان يعتقد ان هذه الحفلة سيكون لها فى حياته تأثير حاسم ، حتى انه حين أراد أن يستولى على الدراهم القليلة التى كنت أمسكها بالامس ، لم ينتبه من شدة اضطرابه الى أنها لا تكفى لشراء التذكرة . وقد تجلى اضطراب عقله المحموم هذا ، على نحو أوضح ،

أثناء الطعام . كان عاجزا عن أن يستقر فى مكانه ، ولم يلمس الطعام أبدا ، فكان ينهض ، ثم يعدل عن رأيه ، ثم يجلس مرة أخرى ، أو كان يهم بأن يمضى ، فيتناول قبعته ثم تستولى عليه حيرة غريبة ، فيبقى فى مكانه لا يتحرك ، ويدمدم بكلام لا يخرج من بين أسنانه ، أو يلقى على نظرة سريعة ، ويطرف لى بعينه ، ويقوم باشارات يبين لى بها حرصه على الحصول على الدراهم الموعودة بسرعة .. لكأنه يحقد على لأننى لم أسرقها من أمى بعد . وأخيرا لاحظت أمى اضطرابه الشاذ ، وجعلت تنظر اليه نظرة استغراب . أما أنا فكنت أشعر بالخوف الذى يعانيه شخص حكم عليه بالاعدام !.. فلما نهضنا عن المائدة ، اختفيت فى ركن من أركان الغرفة وأنا أرتعد من الحمى ، وأخذت أعد الدقائق فى انتظار اللحظة التى اعتادت أمى أن ترسلنى فيها الى السوق . رباه ! اننى لم أعان فى حياتى بعد ذلك شيئا كريها الى هذا الحد ، وستظل هذه الدقائق محفورة فى ذاكرتى الى الابد . ان فى الحياة ساعات كأنما تتجمع فيها آلام سنين طويلة برمتها .. كنت أعلم أننى قادمة على اقتراف عمل سيىء . الم يحاول أبى نفسه أن يوقظ فى غرائز الخير فى المرة الاولى حين دفعنى الى فعل الشر دون تفكير ، ثم هاله عمله فبين لى خطيئتى ، ونصحنى بأن لا أعود اليها ؟ أليس فى وسعه اذن أن يدرك الآن أن من الصعب ان يغش نفسا ظمأى الى المشاعر الواضحة ، نفسا أوجست الخير والشر وفكرت فيهما طويلا ؟ على اننى أدركت انه كان يدفعنى الآن الى اقتراف

الشر مرة أخرى ، ويضحى هكذا بطفلة بائسة لا حيلة لها فى الدفاع عن نفسها ، ويعرضنى كذلك لفساد الضمير ، فلا شك انه خاضع لسلطان ضرورة هائلة !.. ثم تساءلت من الركن الذى كنت مختبئة فيه : « لماذا يريد أن يكافئنى على عمل سأقوم به عن طيب خاطر؟ » .. وهاجمتنى احساسات جديدة ، وآمـــال جديدة ـ خرجت لا أدرى من أين ـ وحاصرتنى أسئلة جديدة . ثم اذا بى فجأة لا أفكر فى امى ، ولا فى الالم الذى ستعانيه حين تفقد آخر درهم مما حصلته بعرق الجبين . وفجأة تركت أمى العمل الذى كانت آخذة نفسها به فى عناء ، ونادتنى . فاقتربت منها وأنا ارتعـــد ارتعادا شديدا ، فأخذت القطعة النقدية من الخزانة الصغيرة وناولتنى اياها وهى تقول :

ـ اذهبى يا نيتوتشكا . ولكن أرجوك ، أناشدك الله ، أن تنتبهى الى المبلغ الذى سيرده اليك البائع . اياك أن يسرقوك، وحذار ان تضيعى شيئا .

فألقيت على ابى نظرة متوسلة . الا أنه هز رأســـه ، وابتسم ابتسامة تشجيع ، واخذ يفرك يديه من فراغ صبره ، فان الساعة تدق الآن السادسة ، وستبدأ الحفلة فى السابعة . لقد سبب له الانتظار ، هو الآخر ، ألما كثيرا .

ووقفت على السلم أنتظره . وكان انفعاله وتعجله من القوة بحيث انه اسرع ورائى دون اى احتياط او تحفظ . وناولته الدراهم . كان السلم مظلما جدا ، فلم أستطع أن اتبين وجه ابي ، الا انني شعرت بانه يرتجف وهو يتناول

المال . وظللت متجمدة فى مكانى لا أستطيع حراكا ، ولم أنتبه الى نفسى الا حين طلب الى أن أصعد الى البيت لآتيه بقبعته . كان لا يريد أن يعود الى البيت .

فقلت له بصوت متقطع ، وكان أملى الاخير هو أن يدافع عنى ، قلت :

— بابا ، لماذا لا تصعد معى ؟

— لا . . . اصعدى وحدك .

ثم هتف ، بعد تفكير ، قائلا :

— انتظرى انتظرى . انتظرى ريثما آتى اليك بالحلوى أولا . ولكن اصعدى قبل ذلك ، واتينى بقبعتى .

شعرت كأن يدا من جليد تقبض على قلبى . فانطلقت من صدرى صرخة ، ثم هربت أصعد السلم ركضا . وحين دخلت الى البيت كنت من الانهيار بحيث لو قلت لأمى أن المال قد سرق لصدقتنى . غير أننى كنت عاجزة عن الكلام . وتهالكت مهدمة على سرير أمى وقد خبأت وجهى بذراعى . وما أن انقضت دقيقة على ذلك حتى فتح الباب بهدوء ، وظهر أبى . . لقد جاء لأخذ قبعته . وحزرت أمى فجأة أن شيئا ما قد حدث ، فصرخت بى قائلة :

— أين الدراهم ؟ أين الدراهم ؟ قولى . قولى !

ثم حملتنى بقبضة يدها ، ووضعتنى على قدمى فى وسط الغرفة . ولكننى أطرقت ، وسكت ، وأنا لا أكاد أفهم ما وقع لى ، ولا ما يراد منى . وصرخت أمى مرة أخرى قائلة :

— أين الدراهم ؟

الا انها اتجهت فجأة نحو أبى ، الذى تناول قبعته ، وسألته :

ـ أين الدراهم ؟ آ .. لقد أعطتك اياها !.. وضيع . مجرم . مجنون . تريد أن تشقيها هى أيضا . هى الطفلة . الطفلة . لا . لا . انتظر . لن تذهب هكذا !

ووثبت الى الباب ، فأقفلته بالمفتاح ، ووضعت المفتاح فى جيبها .

ـ هيا . تكلمى . قولى الحقيقة . اعترفى بكل شىء . تكلمى ، تكلمى ، والا فأنا أعرف ماذا أصنع بك !

قالت ذلك بصوت لا يكاد يسمع من شدة الانفعال ، وهى تقبض على ، وتهز ذراعى . وأقسمت فى هذه اللحظة لألزمن الصمت ، ولا أتهم أبى . ورفعت عينى نحوه ، مرة أخيرة ، فى حياء . كان يكفينى منه عندئذ نظرة واحدة ، كلمة واحدة ، على نحو ما اتوقع ، على نحو ما اتمنى ،حتى أكون سعيدة، بالرغم من أى تعذيب ينالنى. الا انه بدلا من ذلك ـ ياربّاه!ـ أمرنى أن أسكت ، باشارة مهددة باردة .. كما لو كان يمكن أن أخشى شيئا من الاشياء فى مثل هذه اللحظة . وشعرت بحلقى يتقبض ، وبأنفاسى تتقطع ، وبساقى يلتويان تحتى ، وسقطت الى الارض مغشيا علىّ ، وانتابتنى مرة أخرى النوبة العصبية التى صرعتنى بالامس .

واستيقظت فجأة على طرق باب منزلنا . وفتحت أمى الباب . ورأيت رجلا يرتدى ثيابا موشاة مما يرتديه خدم النبلاء ، رأيته يدخل البيت ، ثم ينظر الينا نظرات تنم عن

الدهشة ويسأل عن الموسيقى يافيموف ، فيتقدم أبى نحوه ، فيناوله الرجل عندئذ مظروفا ، وهو يقول انه رسول « ب » الموجود الآن فى منزل الامير سيده . كان المظروف يحتوى على تذكرة ممتازة لحضور حفلة الموسيقى «س» !

ان ظهور هذا الخادم الانيق الذى يأتى خصيصا من قبل سيده الامير لدعوة الموسيقى البائس يافيموف ، قد أحدث فى نفس أمى ، فجأة ، تأثيرا كبيرا . قلت فى أول هذه القصة، ان هذه المرأة البائسة كانت تحب أبى الى حد العبادة . **وكان قلبها ، فى هذه الدقيقة ، رغم السنين الثمانى التى قضتها معه فى شقاء دائم لم يتغير أبدا . لقد كانت قادرة على أن تحب زوجها رغم كل شىء . ومن يدرى ! فلعلها اعتقدت فجأة بأن الحظ سيبتسم ، وان كل شىء على وشك أن يتغير . لقد كان يكفى خيالهـــا ظل من أمل ، حتى يسترسل فى أحلامه !** لعل عدوى الاحلام المجنونة التى كانت تملأ رأس زوجهـــا قد سرت الى رأسها هى الاخرى ، ولعلها أصبحت مثله تثق بعبقريته ثقة لا تتزعزع ! ومهما يكن من أمر ، فمن المستحيل أن لا تتأثر امرأة ضعيفة بمثل هذه البادرة ، وأن لا تجعلها التفاتة الامير تتخيل فى طرفة عين ألف أمل وأمل . وفى طرفة عين أصبحت مستعدة لأن تلتفت الى زوجها ، لأن تغفر له الحياة البائسة التى قضتها معه ، لأن تغفر له حتى الجريمة الاخيرة التى اقترفها فى حقها وهى افساد طفلتها الوحيدة . لقد أصبحت مستعدة ، فى انطلاقة الحماسة وتجدد الامل ، لأن تبرىء زوجها من تلك الجريمة ، لأن لا ترى فيهـــا الا

خطيئة بسيطة ، ترجع الى قلة التبصر ، وتأثير البـؤس ، وحياة الذل ، وضياع الامل . الخلاصة : لقد كان كل مافيها الآن سرورا وامتنانا ، وأصبحت مستعدة لأن تنسى كل شىء فى سبيل زوجها المسكين .

أما أبى فكان لا يستطيع أن يستقر فى مكانه من شـدة فرحه . لقد سحرته التفاتة الاميروصديقه«ب». واقترب من أمى غير متردد ، وهمس فى أذنها بضع كلمات خرجت أمى على اثرها من الغرفة ، ثم عادت بعد دقيقتين تحمل نقودا استبدلتها بالورقة المالية .

فتناول أبى روبلا على الفور ، وقدمه للرسول . وانسحب هذا بعد اظهار آيات الاحترام المهذب . وخرجت أمى من الغرفة مرة أخرى ، وعادت بعد لحظة «بمكواة» ، وأخذت تكوى قميصا هو أحسن قمصان زوجها ، وتولت هى نفسها عقد ربطة عنقه البيضاء التى كانت قد حفظتها فى خزانتها ، بعناية ، للطوارىء ، مع الرداء الاسود الذى كان قد اشتراه لعمله فى لمسرح ــ وكان قد أصابه البلى بعض الشىء ــ فلما انتهى أبى من زينته ، تناول قبعته ، وهم بأن يخرج ، الا انه قبل أن يخرج طلب شيئا يشربه . لقد كان ممتقع اللون ، ولم يستطع أن يظل واقفـا ، فارتمى على كرسى ، وأتيت له أنا بكأس من الماء . لعل شعور العداوة قد دب من جديد فى قلب أمى ، فأخمد حماستها الاولى . ومضى أبى وبقينا وحدنا . وانطويت أنا فى أحد أركان الغرفة ، وأخذت أتأمل امى مدة طويلة ، وانا صامتة . لم ارها يوما فى مثل هذه الحالة : لقد

كانت شفتاها ترتجفان ، واحمر خداها الشاحبان فجأة ، ورأيت جسمها يرتعد من حين الى حين . وأخيرا أخذ انفعالها يخرج آهات ، وكلاما متقطعا ، وشهقات صما .

ـ أنا المجرمة ، أنا وحدى المجرمة . ما أشقانى يا رباه ، ماذا ستصبح بعدى ، ماذا ستصبح حين أموت !

قالت ذلك ، وهى واقفة فى وسط الغرفة ، كأن صاعقة وقعت على رأسها حين فكرت فى ذلك . ثم أردفت تقول ، وهى تضمنى الى صدرها وتقبلنى :

ـ نيتوتشكا ، صغيرتى البائسة ، من ذا الذى سيعنى بأمرك بعد ان لم أحسن تربيتك ولا ملاحظتك فى هذه الحياة التى نعيشها . آه . انك لا تفهمين . هل ستذكرين ماأقوله لك الآن ؟ نيتوتشكا ، قولى ، هل ستذكرينه ؟

فصرخت وأنا أضم يدى احداهما الى الاخرى باشارة التوسل :

ـ نعم . نعم يا أماه ..

وضمتنى اليها فى قبلة طويلة ، قوية ، كأنما تعذبها فكرة الانفصال عنى .

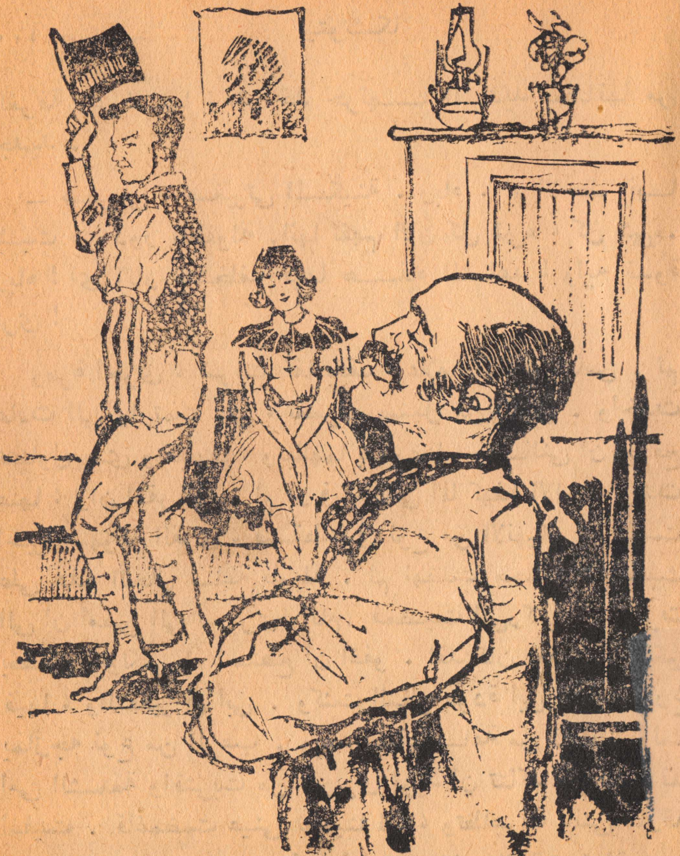
شعرت كأن قلبى يتمزق .

وسألتها وأنا أبتلع دموعى :

ـ أماه ، أمى الحبيبة : لماذا .. لماذا .. لا تحبين أبى ؟

ولم يسمح لى الشهيق بأن أتم كلامى .

وانطلقت من صدرها صرخة ، ثم استأنفت سيرها فى طول



كان أبى فى مثل هذه الأحوال يأخذه مرح مباغت ، ويومىء الى بعينيه خلسة لينبئنى بأنه سيسخر من الألمانى ، وبأن الأمر سيكون مضحكا جدا

(ص ٦٧)

الغرفة وعرضــها وقد أخذ حزنهــا الشديد بخناقها من جديد .

ـ صغيرتى ، صغيرتى المسكينة . رباه . لم ألاحظ أنهــا شبت عن دور الطفولة . انها تفهم الآن كل شىء ، كل شىء. رباه ! أى آثار ستخلف فيها هــذه المشاهد ! وأية قدوة ترى !

ومرة أخرى ، ضربت كفا بكف ، علامة الالم واليأس . ثم عادت الى وارتمت على ، تغمرنى بسيل من القبل . وأخذت تتناول يدى وتقبلهما ، وتبللهما بدموعها ، وتسألنى أن أصفح عنها ، وان أغفر لها . لم أر فى حياتى ألما كهذا الالم . وبدت أخيرا منهوكة القوى ، فسقطت فى نوع من الانهيار . وقضت على هذه الحال ساعة طويلة . ثم نهضت محطمة ، وطلبت الى أن أمضى الى سريرى وأنام. فمضيت الى ركنى ، وتدثرت بغطائى ، ولكنى لم أستطع أن أغفو . لقد كان يعذبنى التفكير فيها ، والتفكير فى أبى . وكنت أنتظر عودة أبى بصبر فارغ يمازجه نوع من الرعب . وبعد نصف ساعة من ذلك تناولت أمى الشمعة واقتربت من سريرى تريد أن تتأكد من اننى قد أغفيت . فأغمضت عينى تطمينا لها ، وتظاهرت بأننى غارقة فى سبات عميق . وبعد أن تأملتنى بعض الوقت ، اقتربت من خزانتها سائرة على أطراف الاصابع ، ففتحتها وسكبت لنفسها قدحا من الخمر شربته ، ثم نامت ، تاركة الشمعة مشتعلة والباب مشقوقا ، على عادتها حين يعود أبى متأخرا.

كنت مستلقية على حال من الخدر ، مفتحة العينين رغم

النعاس ، وكنت ما أن أغمض جفني حتى تجتاحني رؤى فظيعة ، فانتفض مذعورة . وكان خوفي يشتد ويشتد .

كنت أود لو أصرخ ، الا أن صوتي كان يختنق في حلقي . وأخيرا ، في ساعة متأخرة جدا من الليل ، سمعت أبي يدفع الباب . لقد كان شاحبا شحوبا فظيعا . كان يهوم في غرفتنا صمت الموت . وكانت الشمعة على وشك أن تذوب كلها ، وهي تضيء مسكننا بنور حزين .

نظرت الى أبي مدة طويلة ، وهو جالس على كرسيه مطرق الرأس ، مجمد اليدين على الركبتين في سكون تام . حاولت عدة مرات أن أناديه ، الا انني لم أستطع ، فكأنني مشلولة . وأخيرا ، تحول فجأة ، ورفع رأسه ، ونهض عن كرسيه ، وظل ، خلال لحظة من الوقت ، واقفا في وسط الغرفة ، كأنه بسبيل اتخاذ قرار ما ، ثم تقدم بغتة من سرير أمي ، وانحنى عليها يتصنت ، فلما أيقن أنها نائمة ، اتجه نحو الصندوق الذي يرتاح فيه كمانه ، ففتحه ، وتناول العلبة السوداء ، ووضعها على الطاولة ، ثم نظر مرة أخرى حوله . كان ينظر دون أن يرى ، كانت عيناه في اضطرب لم أعهد مثله فيهما من قبل .

وهم بتناول كمانه ، الا انه سرعان ما تركها ، وعاد الى الباب يقفله ، ثم لاحظ أن الخزانة مفتوحة ، فاتجه اليها بخطى كخطى الذئب ، ورأى القدح ، فملأه خمرا وشربه . ثم عاد مرة ثانية الى كمانه ، فتناوله ، ليتركه من جديد ، ومضى الى سرير أمي مرة أخرى . وقبعت أنتظر ما سيقع ، وأنا

أشد ما اكون انهيارا ..

وأصاخ السمع مدة طويلة جدا ، ثم رفع الغطاء فجأة عن وجه أمى ، ومد اليه يده يجسه . وارتجفت . وزاد انحناؤه على رأس أمى حتى لامسه بوجهه . ولما نهض عنــه رأيت ابتسامة صفراء رهيبة مرعبة تطوف فى وجهه . ثم ارجع الغطاء على رأس النائمة وعلى قدميها المكشوفتين ، بهـدوء ورفق وعناية . وأخذت أرتجف ، وقد تضاعف خوفى وذعرى: خفت من أمى ، من نومها العميق هـذا العمق . خفت من الخطوط المتجمدة التى يرسمها جسمها تحت الغطاء . ودبت فى نفسى فكرة فظيعة وقعت منى موقع الصاعقة .

ولما فرغ أبى من جميع أعمال التمهيـــد هذه ، عاد الى الخزانة ، وأفرغ فى جوفــــه باقى الزجاجة . كان يرتجف كورقة فى مهب الريح حين عاد الى الطاولة . كان من الشحوب بحيث لا يعرف . وتناول كمانه . لقد رأيت هذه الآلة من قبل ، وكنت أعرف فيم تستعمل ، ومع ذلك فقد كنت أتوقع أمرا رهيبا ، فظيعا .. وانتفضت حين سمعت أول صوت . لقد أخذ أبى يعزف . الا أن الاصوات كانت تأتى متقطعة . لقد كان يتوقف فى كل لحظة ، كأنما هو يستجمع ذكرياته . وأخذ ينظر الى السرير نظرة غريبة . كان هناك ، على السرير ، شىء يزعجه . وعاد مرة أخرى الى السرير . وأخذت التهم بعينى كل حـــركة من حركاته ، وقـــد تملكنى خوف لا اسم له ..!

وفجأة ، أخذت يداه تجسان النائمة ، بسرعة ، وراودتنى

نفس الفكرة مرة أخرى كالصاعقة : **لماذا تنام أمى نوما عميقا الى هذا الحد ؟ كيف لا تستيقظ على يدى أبى تجسانها هكذا ؟** وأخيرا رأيت أبى يجمع كل الاشياء التى تقع تحت يديه : معطف أمى العتيق ، معطفه هو ، قميص نومه ، وحتى الملابس التى خلعتها حين نمت ، ثم يضعها جميعا فوق أمى حتى اختفت تحتها تماما . وظلت أمى متمددة ، لم يختلج لها عضو !

لقد كانت تنام نوما عميقا .

وحين فرغ من ذلك ، أطلق آهة من يتخفف من عبء . الآن لن يزعجه أحد . ومع ذلك ما زال هناك شىء يقلقه . وغير مكان الشمعة . وجلس أمام الباب ، مديرا ظهره للسرير . وأخيرا تناول كمانه بحركة يائسة ، وأمسك بقوسه . وبدأت الموسيقى .

ان هذه الموسيقى لم تكن موسيقى .. ما زلت أتذكر كل شىء تذكـــرا تاما ، حتى أبسط حركة . ما زلت أتذكر كل ما أسر انتباهى وقتئذ . كلا ، لم تكن تلك موسيقى شبيهة بما سمعت بعد ذلك من موسيقى .. لم تكن تلك أصوات كمان ، لقد كانت صراخا دوى فى منزلنا المظلم لأول مرة . من الممكن أن تكون حالتى المرضـــية وقتئذ قد ضخمت الامور ، ومن الممكن أن تكون حواسى فى تلك اللحظة مضطربة مشوشة . الا أننى مقتنعة بأننى سمعت آهات وصرخات انسانية ، ونحيبا .. **لقـد كان ينفجر من هذه الانغـام ألم فظيع ، حتى اذا زمجرت نهاية اللحن ، بدت تلف كل شىء فى**

آن واحد : كل هول النحيب ، كل عذاب القلق ، كل الاحتضار اليائس .

ولم أستطع أن أتجلد أكثر مما تجلدت. فوثبت من مكانى مرتعـــدة ، وقد أغرق الدمع وجهى ، فارتميت على أبى ، وطوقته بذراعى ، وأنا أعول من الخوف . فأطلق أبى صرخة قوية ، ووضع كمانه على الارض ، وكمن فقـــد صوابه أخذ يرسل نظرته التائهة الطائشة فى كل مكان باحثا عن سلاح ما. ثم تناول كمانه فجأة ، وهم أن يهوى به على رأسى .. ولو قد انقضت ثانية أخرى لهوى بالكمان على رأسى ، فحطمنى فى مكانى . الا أننى صرخت متوسلة :

ـ بابا . بابا .

فتعرف صوتى ، وأخذ يرتجف كورقة ، وتراجع الى الوراء خطوتين .

ثم حملنى من كتفى ، وقال :

ـ آ . انت هنا . اذن لم ينته كل شىء . اذن ستبقين معى .

فقلت متوسلة من جديد :

ـ أبت . أبت . لا تنظر الى هكـــذا . لو تعرف كم أنا خائفة ! آه ..

وأثرت فيه دموعى . فوضعنى برفق على الارض ، ونظر الى خلال بضع ثوان نظرة فاحصة تريد أن تعرف وأن تفهم . ثم كأن فكرة فظيعة راودته فجأة ، فتفجرت من عينيـــه المضطربتين دموع ســـخينة ، وانحنى على ، وأخذ ينظر فى

وجهى فاحصا . فكررت قائلة ، وأنا شبه مجنونة :

ـ بابا . بابا العزيز . لا تنظر الى هكذا . بابا ، لنذهب من هنا ، لنذهب بسرعة . لنذهب .

ـ نعم . لنذهب . لنذهب . آن الاوان . لنذهب يا نيتوتشكا . بسرعة ، بسرعة .

وتحرك حركة من فهم فجأة ما بقى عليه أن يعمله . فألقى على الغرفة نظرة مستديرة ، ولمح وشاح أمى ساقطا على الارض ، فرفعه ، ووضعه فى جيبه ، ثم رأى قبعتها فحملها أيضا ، وخبأها تحت ثيابه ، كمسافر يزمع رحلة طويلة ، فيأخذ كل ما قد يحتاج اليه .

أما أنا ، فبعد أن ارتديت ثوبى بسرعة ، أخذت أجمع ما بدا لى ضروريا للرحلة . ثم سألنى أبى :

ـ هل انتهيت من أخذ كل ما يجب ؟ هل هذا كل شىء ؟ هل انتهيت من كل شىء ؟ اذن فلنذهب بسرعة .

وحزمت متاعى بسرعة ، ولفعت رأسى بوشاح . الا اننى فى اللحظة التى أوشكت أن أخرج فيها ، تذكرت أن على ان احمل اللوحة المعلقة على الحائط ، ووافق أبى على ذلك فورا . انه الآن هادىء ، يتكلم همسا ، ويردد ان علينا أن نمضى بسرعة . كانت اللوحة معلقة فى مكان عال جدا من الجدار . فتعاونا معا على وضع كرسى أسندناه الى الحائط ووضعنا فوقه مقعدا صغيرا ، حتى استطعنا بفضل هذه السقالة وبفضل جهودنا المشتركة أن ننزل اللوحة من مكانها . وبعد ذلك لم يبق علينا الا أن نسير . وأمسك أبى بيدى ، الا

انه استوقفنى حين أوشكنا أن نجتاز عتبة الغرفة . وحك جبينه مدة طويلة كمن يحاول أن يتذكر ما بقى عليه أن يعمله. وأخيرا وجد ما كان يبحث عنه : مضى الى سرير أمى ، فتناول من تحت مخدتها مفتاح الخزانة الصغيرة ، وراح ينبش فى هذه الخزانة على عجل ، ثم عاد يحمل الى بضـــعة دراهم وجدها فى قاع الدرج ، وقال لى مدمدما :

ـ خذى هـــذا ، احتفظى به . لا تضيعيه . حذار أن تضيعيه .

وقد دس الدراهم ، أول الامر ، فى يدى ، الا انه غير بعد ذلك رأيه ، فاستردها منى ، ووضعها فى قميصى . ما زلت أتذكر الرعدة التى سرت فى حين شعرت ببرودة الدراهم على جسدى . أعتقد اننى فى تلك اللحظة انما أدركت قيمة المال. لقد انتهت كل تحضيراتنا الآن . ومع ذلك استوقفنى أبى مرة أخرى .

قال وهو يستجمع أفكاره فى جهد .

ـ نيتوتشكا . اسمعى يا بنيتى الصغيرة . ولكن نسيت . ماذا ؟ ماذا يجب أيضا ؟ ها . نعم . نعم . تذكرت ، تعالى هيا يا نيتوتشكا .

وقادنى الى الركن الذى وضعت فيه الصور ، وأمرنى أن أركع .

ـ صلى يا بنيتى . هذا أولى بك ، هذا أولى بك . نعم هذا أولى بك .

قال ذلك هامسا وهو يرينى الايقـــونة ، ويلفنى بنظرة

غريبة . ثم أضاف بصوت متوسل :

ـ صلى . صلى .

فركعت ، وضممت يدى احداهمـا الى الاخرى ، ثم لم ألبث ـ وقد خنقنى الخوف ـ أن وقعت على الارض لا أعى ، وبقيت على هذه الحال بضع دقائق . ثم استجمعت قواى كلها ، ووجهت عاطفتى كلها الى الصلاة ، غير أن الخوف ظل أقوى من كل ذلك ، فنهضت وقد اجتاحنى حزن فظيع . وددت منذ تلك اللحظة أن لا أتبع أبى ، لقد كان يخيفنى .. وددت لو أبقى . ثم انفرجت شفتاى عن سبب عذابى الشديد فقلت وقد تفجر دمعى عزيرا :

ـ وماما ؟ ماذا بها ؟ أين هى ؟ أين ماما ؟

ولم أستطع أن أتم كلامى من شدة الانتحاب .

فلما رآنى أبكى ، أخذ يبكى هو الآخر .

ثم أمسك بيـــدى ، وقادنى الى السرير ، فرفع كومة الملابس ، ورفع الغطاء . رباه . انها ترقد ، باردة ، صفراء الوجه .. فارتميت عليها كالمجنـــونة ، لأطوقها بذراعى . وأمرنى أبى أن أركع مرة أخرى ، وهو يقول هامسا :

ـ انحنى يا بنيتى ، قولى لها وداعا ..

انحنيت باحترام عميق ، وانحنى أبى فى الوقت نفسه . لقد كان شاحبا شحوبا رهيبا ، وكانت شـــفتاه تتحركان بهمس ، قال وهو يشير الى الجثمان بيد مرتعشة :

ـ لست أنا ، يا نيتوتشكا ، لا ، لست أنا . هل تسمعين؟

لست أنا الذى فعلت هذا . لست بمجرم . تذكرى هذا ، يا نيتوتشكا .

دمدمت ، وقد بلغ بى الذعر حدا لم أعرفه من قبل :

ـ لنمض ، يا أبى ، آن الاوان ..

قال :

ـ نعم . آن الاوان ، آن الاوان .

ثم أمسك ذراعى بقوة ، وقادنى الى خارج الغرفة .

ـ هيا بنا ، يانيتوتشكا . لقد انتهى كل شىء ، الحمد لله .

وهبطنا السلم ، واستيقظ البواب ، ففتح لنا الباب وهو ينظر الينا نظرة ارتياب . واجتاز أبى العتبة بسرعة كبيرة ، تحاشيا لأسئلته ، ولم أستطع أن ألحق به الا بصعوبة . وبعد أن سرنا فى الشارع حتى آخره ، وقفنا عند ضفة القناة . كان الثلج ، خلال الليل ، قد غطى أرض الشارع ، وكانت خطاى ترتعد ، وكنت أركض وراء أبى منهوكة ، متعلقة بأذيال ثوبه . كان يحمل كمانه تحت ابطه ، يتوقف فى كل لحظة ليرفعه ، وهو يوشك أن يسقط من الانزلاق .

مشينا هكذا قرابة ربع ساعة . وأخيرا هبط أبى على الرصيف المنحدر ، فلما وصل الى ضفة الماء ، جلس على حافته ، فكان الماء يهدر على خطوتين منا ، وليس حولنا أى مخلوق . ان الذعر الذى تملكنى فى تلك اللحظة سيبقى منقوشا فى نفسى الى الابد !.. ان ما حلمت به خلال السنة الماضية قد تحقق . ها نحن قد هجرنا منزلنا الحقير . ولكن أين هذا مما كنت أتوقعه ، مما كنت آمله ، مما صوره

لى خيال الطفلة ، من أجل سعادة هـذا الانسان الذى كنت أحبه حبا عنيفا مثل هذا العنف ، عميقا مثل هذا العمق ؟.. ثم ان ذكرى أمى كانت تلاحقنى ، فكنت أتساءل : « لماذا تركناها هنالك وحدها ؟ لماذا تركنا جثمانها كما يترك شىء لا فائدة فيه ؟» . لقد كان هذا التفكير يعذبنى .

ولم أستطع أن أحتفظ لنفسى بهذه الافكار التى تشغل بالى ، فناديت أبى :

ــ أبت . أبت الحبيب .

ــ ماذا ؟ (قال ذلك بلهجة صارمة) .

ــ أبت الحبيب ، لماذا تركنا أمى هناك ، لماذا تركناها ؟ أبت الحبيب . لنعد الى البيت ، لنستدعى أحدا يبقى الى جانبها !

فصرخ فجأة وهو ينهض مرتعدا ، كمن واتته فكرة تحل جميع مشاكله :

ــ نعم يا نيتوتشكا . لا يمكن أن نفعل هكذا . يجب الرجوع الى جوار ماما . ان الجو بارد عليها هناك . اذهبى اليها يا نيتوتشكا ، اذهبى اليها . ليست الغرفة مظلمة . فهناك شمعة مشتعلة . لا تخافى . ادعى اليها أحدا ، وارجعى . اذهبى وحدك . انى منتظرك . لن أتحرك من هذا المكان قبل أن ترجعى .

ومضيت فورا ، الا أننى لم أكد أصل الى الرصيف حتى شعرت كأن ضربة تصيب قلبى ، فالتفت الى الوراء ، فاذا بى أرى أبى يهرب فى الجهة المعاكسة . لقد تركنى . تركنى

فى لحظة كهذه !.. فصرخت بكل قواى ، وأخذت أعدو وراءه عدوا سريعا ، وقد تملكنى خوف مجنـــون .. الا انه كان يركض أسرع منى ، وما لبث أن غاب عن بصرى ، وأنا ألهث مهدودة القوى خائرة .. ووجدت قبعته فى الطريق . لقـد سقطت عن رأسه وهو يركض . فحملت القبعـة ، وتابعت عدوى . شعرت بأنفاسى تتقطع ، وبساقى تترنحان تحتى . أحسست أن ما يقع لى الآن ليس أمرا طبيعيا ، وأنه لابد أن يكون أضغاث أحلام .. ان ما أعانيه لشبيه جدا بما يشعر به الحالم ، حين يريد الافلات من شـــخص يلاحقه ، فتأبى أقدامه السير ، وينتهى به الامر الى الاغماء . **كانت تمزقنى مشاعر فظيعة . كنت أشفق على أبى : كان صدرى يختنق اذ أتذكر أنه بلا معطف ، وبلا قبعة ، بعيدا عنى ، بعيـــدا عن طفلته الحبيبة . كنت أود أن أدركه ، حتى أســـتطيع ان اعانقه ، مرة واحدة على الاقل ، عناقا قويا ، وحتى أستطيع أن أقول له أن لا يخاف منى .. حتى أستطيع أن اطمئنه .. حتى استطيع أن أؤكد له أننى لن أعدو وراءه اذا كان لا يريد ذلك ، واننى عائدة وحدى الى جانب أمى .** ولمحته من بعيد يدخل فى أحد الشوارع . وحين دخلت فى هذا الشـــارع فى أعقابه كنت أراه أمامى . الا أن قواى خانتنى عندئذ فأخذت أجهش بالبكاء وأصرخ . وما زلت أذكر أننى ، أثناء ركضى ، اصطدمت بشخصين ، وقفا فى وســـط الرصيف ، وأخذا ينظران الينا ، أنا وأبى ، دهشين . وصرخت مرة أخيرة :

ـ بابا . بابا .

الا أن قدمى زلت على الرصيف ، فسقطت أمام عتبة أحد البيوت . وأحسست بالدم يسيل على وجهى .. ثم أغمى على ، فلم أشعر بعد ذلك بشىء .

***

وحين فتحت عينى ، وجدتنى على سرير دافىء جميل ، ورأيت الى جانبى وجوها لطيفة أفرحتها يقظتى . ورأيت سيدة مسنة ذات نظارات ، وسيدا طويلا ينظر الى وقد ظهرت على وجهه امارات شفقة عميقة ، ورأيت امرأة صبية جميلة ، ورأيت كذلك عجوزا أشيب يمسك بيدى وهو ينظر فى ساعة . لقد بعثت الى حياة جديدة .

ان أحد الاشخاص الذين صادفتهم فى طريقى أثناء ركضى المسعور كان هو الامير « ك » ، وقد سقطت على عتبة منزله . وقد قرر هذا الامير الذى أرسل الى أبى تذكرة حضور الحفلة التى أقامها الموسيقى « س » ، قرر – حين عرف من أنا ، بعد بحث طويل متعب – أن يحتفظ بى فى بيته ، وأن يربينى مع أبنائه ، متأثرا من هذه المصادفة العجيبة . **وبحثوا عن المصير الذى آل اليه أبى ، فعرفوا أنه عثر عليه فى ركن من أركان احدى الضواحى ، وهو فى نوبة هذيان شديد فقادوه الى أحد المستشفيات ، حيث مات بعد يومين .**

الموت ! مثل هذه النهاية نتيجة طبيعية ، حتمية ، للحياة التى عاشها . كان لابد أن يموت هكذا ، حين غاب عنه – فى طرفة عين ، كسراب مبهم فارغ – كل ما كان يشده الى

الحياة .. حين تبدد أمله العظيم ، حين أدرك ادراكا واضحا باهرا انه قد خدع فى حقيقة قيمته ، خلال حياته كلها . لقد تجلت له الحقيقة ساطعة لتريه مدى ضلاله . لقد سمع ، فى ساعته الاخيرة ، عبقرية رائعة فتحت عينيه وأعلنت له أنه لاشيء ، فحكمت عليه هكذا بالموت .. حين سمع أبى اللحن الاخير الذى فجره « س » من أوتاره ، أدرك ما هو الفن الرائع ، الفنى دائما ، الصادق القوى أبدا ، وعرف ما هى العبقرية . ان كل ما كان يقلقه فى غياهب نفسه ، خلال حياته كلها ، كل ما لم يكن حتى هذه اللحظة الا رؤى غائمة وخيالات متهربة ، كل ما أوجسه فى بعض اللحظات ثم دفعه عن نفسه خائفا ، كل ما لفع به حياته من كذب عنيد ، كل ما كان يراه مقبلا ، ويخشى أن يراه ، كل ذلك بدا أمام عينيه الآن فجأة ، أمام عينيه اللتين كانتا تصران على أن لا تريا أن النور نور ، وأن الظلمات ظلمات . الا أن الحقيقة كانت أقوى من أن يحتملها نظره : انه مضطر ، لأول مرة أن ينظر الى الامور على حقيقتها ، وجها لوجه ، وأن يرى المصير الذى رسمه لنفسه . **فلما رأى ذلك كله بلغ من الاضطراب حدا أفقده عقله ، لقد وقعت الحقيقة على عقله موقع الصاعقة ..** على أن الحقيقة التى أدركها كان ينتظرها ، بالرغم منه ، خلال حياته كلها ، وهو يرتعد من الخوف . كأن فأسا كانت مسلطة على رأسه خلال حياته كلها ، فكان ينتظر الضربة القاضية فى كل لحظة ، وهاهى ذى الضربة القاضية قد أتت ! نعم انها ضربة قاضية . **كان يريد أن يهرب من محكمة ضميره**

ولكنه أصبح الآن لا يستطيع أن يجد ملجأ يهرب اليه . زال آخر أمل له ، وتبددت آخر حجة يمكن أن يتعلل بها .. أن تلك التى ضاق بوجودها ذرعا خلال مدة طويلة ، تلك التى كانت تسمم حياته ، والتى كان يعتقد أن من حقه أن يتمنى موتها ، باعتباره منقذا له ، قد ماتت أخيرا .. ها هو ذا الآن حر ، لا يزعجه أحد ، وقد زالت عماوته ، وتملكه حزن مهلك. أراد أن يحكم على نفسه ، أن يحكم على نفسه بقسوة لا ترحم، بقسوة من يحكم حكما لا تحيز فيه . الا أن قوسه الضعيف لم يستطع أن يفعل شيئا غير أن يردد النغمات الاخيرة التى عزفها الموسيقى العبقرى « س » .. !

لقد كان الجنون يتربص به منذ عشر سنين .. وها هو ذا الآن ينقض عليه بغتة !

- ٤ -

لم أسترد صحتى الا بعد مدة طويلة . وحين استطعت أن أترك سريرى نهائيا ، كانت ذاكرتى ما تزال من الوهن بحيث أننى ظللت مدة طويلة لا أفهم ما صرت اليه . كنت فى بعض اللحظات أحسب أننى فى حلم ، وتمنيت أن يكون كل ما وقع لى حلما من الاحلام . كنت ، اذا جاء المسـاء ، وهممت أن أنام ، آمل أن أستيقظ فجأة فاذا بى فى مسكننا البائس ، بين أمى وأبى .. الا أننى أدركت شيئا فشيئا أننى وحدى ، واننى أعيش عند غرباء .

شعرت أخيرا أننى يتيمة .

وأخذت أتأمل ، فى كثير من الشره ، ما يحيط بى من أشياء جديدة على كل الجدة ، فبـدا لى كل شىء ، فى أول الامر ، غريبا عجيبا محيرا : هذه الوجوه الجديدة ، هذه العـادات الجديدة ، هذه الحجرات الفخمة فى قصر قديم من قصـور الامراء . مازلت أرى هذه الحجرات واسعة ، عالية ، مترفة ، وما زلت أراها كذلك حزينة ، كئيبة ، يتملكنى الخوف حين أجتاز احداها ، وأشعر أننى لابد ضائعة فيها . لم أكن قد شفيت تماما بعد ، كان خوفى المستتر منسجما تمام الانسجام مع هذا المسكن الحزين ، على روعته وجلاله . ثم ان حنينا قويا عنيفا كان ما ينى ينفذ عميقا الى قـلبى الفتى . كنت

أتسمر خائفة أمام لوحة من اللوحات ، أو أمام مرآة ، أو امام مدفأة من المدافىء الانيقة الصنع ، أو أمام تمثال يخيل الى أنهم دفعوه خصيصا الى قاع ركن من الاركان ليحسن التحديق فى وتخويفى . كنت أتسمر ، ثم أنسى فجأة لم وقفت وماذا أريد ، وفيم أفكر ، حتى اذا عادت الى ذاكرتى رأيتنى من الخوف بحيث كان قلبى يخفق خفقانا عنيفا .

بين الذين كانوا يعودوننى أيام كنت مريضة جدا ، فيما عدا الطبيب العجوز ، كان هنالك شخص أثر وجهه فى تأثيرا كبيرا . كان وجهه رصينا وطيبا ، وكان ينظر الى فى كثير من الشفقة والمحبة . كنت أوثر وجهه على جميع الوجوه الاخرى ، وكنت أشعر برغبة قوية فى مخاطبته ، الا أننى لم أجرؤ على ذلك . كان يبدو دائما حزينا جدا ، وكان يتحدث قليلا ، وبصوت متقطع ، دون أن تطوف فى شفتيه يوما أضعف ابتسامة . كان ذلك الشخص هو الامير « ك » نفسه ، الذى حملنى من الشارع وأسكننى فى بيته . كانت زياراته تقل شيئا فشيئا مع تقدمى فى مرحلة النقاهة . وفى آخر مرة زارنى فيها جمل الى حلوى وكتاب وصور . ثم قبلنى ، ورسم على اشارة الصليب ، وطلب الى أن أحاول المرح ، وأنبأنى — على سبيل التشجيع — انه سيكون لى بعد قليل صديقة من سنى ، هى ابنته « كاتيا » التى كانت يومئذ فى موسكو . ثم التفت الى فرنسية متقدمة فى السن هى مربية أبنائه ، والى فتاة تعنى بشؤونى ، فأوصاهما بشىء يتعلق بى . ثم خرج ، ولم أره الا بعد ثلاثة أسابيع من تلك اللحظة . كان

الامير يعيش حياة خاصة ، فى عزلة تامة عن الناس . وكانت الاميرة تشغل نصف القصر ، وكانت هى نفسها ، خلال أسابيع طويلة ، لا ترى زوجها . **ولاحظت بعد ذلك أن سكان هذا المنزل لا يتحدثون عن الامير كثيرا ، كأنما هو غائب . الا أن كلا منهم كان يحترمه . ان المرء ليشعر أنهم يحبونه ، ولكنهم يعدونه انسانا شاذا بعض الشىء .** وكأنما كان يدرك هو نفسه أنه ليس كغيره ، فكان لهذا السبب لا يظهر الا نادرا . (ولسوف أتحدث عنه تفصيلا فيما بعد) .

وفى ذات صباح ، جاءوا لى بملابس داخلية بيضاء جميلة ثم بثوب من الصوف الاسود مزين ، أخذت أرمقه دهشة قلقة ، ثم أنزلونى ، بعد أن أتموا زينتى ، الى جناح الاميرة . طاش لبى حين رأيتنى أمامها . ولم يسبق لى فى حياتى ان رأيت نفسى فى جو مترف رائع الى هذا الحد . الا أن انشداهى لم يدم طويلا . سمعت الاميرة تطلب الىأن أقترب ، وامتقع لونى . لقد قدرت ، وهم يلبسوننى ، أنهم انما يهيئوننى لامتحان خطير . لاأدرى كيف راودتنى فكرة كهذه ، على أننى كنت قد دخلت حياتى الجديدة وفى نفسى حذر غريب من كل من يحيطون بى . ولاطفتنى الاميرة كثيرا ، بل قبلتنى ، وجرؤت عندئذ أن أنظر اليها . كانت هى السيدة الجميلة التى رأيتها واقفة الى سريرى حين أفقت من الاغماء . وارتعش جسمى كله وأنا أقبل يدها ، ولم أستطع أن أجد فى نفسى القوة الكافية للاجابة على أسئلتها بأى شىء . وأجلستنى قريبا منها على مقعد صغير ، وكأن هذا المكان قد أعد لى خصيصا . كان واضحا أن الاميرة كان يسعدها أن

تحبنى حبا صادقا ، وأن تغمرنى بالقبل ، وأن تكون لى أما ، الا أننى لم أفهم هذه السعادة التى تهبط على ، فلم أحظ بتقدير الاميرة كثيرا . وأعطيت كتابا جميلا من صور ، أمرت أن أنظر فيه ، بينما أخذت الاميرة تكتب ، وكانت تترك قلمها ، من حين الى حين ، لتحدثنى ، فكنت أضطرب وأجيب اجابات طائشة .

والخلاصة : اننى تصرفت تصرف طفل تافه ، مذعور ، خائف ، بل وغبى . وان غباوتى خاصة هى التى ساءت الاميرة ، ولئن ضاقت بى ذرعا بعد مدة قصيرة ، فلا شك أننى مسئولة وحدى عن ذلك .

وفى نحو الساعة الثالثة بدأت الزيارات ، ولم تلبث الاميرة أن أصبحت أكثر عناية بى ، وأكثر رقة معى من ذى قبل . وأجابت على أسئلة الزوار عنى بأن قصتى قصة غريبة جدا ، ثم أخذت تتحدث بالفرنسية حالا . فكان الزائرون ، أثناء حديثها . ينظرون الى وهم يهزون رؤوسهم ، ويطلقون من أفواههم صرخات التعجب . حتى أن شابا من الحاضرين أدار نظارته ليحدق فى . وحاول عجوز أشيب أن يقبلنى . وكنت أنا أرتجف ، واصفر ، وأحمر ، وظللت قابعة فى مكانى مطرقة ، لا أجرؤ على القيام بحركة . وكان قلبى منقبضا يؤلمنى . أخذت أفكر فى منزلنا البائس .. فى أبى .. فى سهراتنا الطويلة الصامتة .. فى أمى .. وحين تذكرت أمى فاضت عيناى بالدموع ، وانقبض حلقى ، ووددت لو أهرب ، لو أختفى ، لو أختبىء .. وما أن انتهت الزيارات حتى

استعاد وجه الاميرة قسوته . فكانت لا تنظر الى نظرة رقيقة، وكانت تخاطبنى بخشونة . الا أن ما كان يرعبنى أكثر من ذلك انما هو شفتاها المشدودتان ، وعيناها السوداوان اللتان تحملقان فى أحيانا ، خلال ربع ساعة .

ولما أتى المساء ، أعادونى الى فوق . وعند منتصف الليل استيقظت محمومة ، وأخذت أبكى مذعورة من أحلامى المخيفة . وفى صباح اليوم التالى ، تكررت الحفلة نفسها ، وقادونى مرة أخرى الى جناح الاميرة . ولعل الاميرة قد ملت قص مغامراتى لزوارها ، واستنفد الزوار ، من جهتهم ، اهتمامهم بى وعطفهم على . ثم اننى طفلة عادية جدا ، ليس فى شىء من « براءة الطفولة » (هكذا قالت الاميرة ذات يوم لسيدة مسنة سألتها هل يمكن أن لا يزعجها وجودى) .. وفى ذات مساء ، أرجعونى الى فوق مرة أخيرة ، ولم يقودونى بعد ذلك الى الاميرة قط . انتهى الامر ، لم يبق لى من حظوة لديها . الا أنه كان يسمح لى أن أطوف حيث أشاء من أرجاء البيت . ولما كنت لا أستطيع أن أستقر فى مكان ، لفرط اضطرابى وقلقى ، فقد كنت أشعر أننى من أسعد الناس طرا حين كنت أستطيع أن أنعزل فى الطابق السفلى ، فى أعماق الحجرات الواسعة . وأذكر أننى شعرت برغبة قوية فى أن أكلم سكان البيت ، ولكنى كنت من خوفى أن ازعجهم أوثر تجنبهم . والذى كنت أحبه أكثر من كل شىء آخر هو أن أنطوى فى ركن من الاركان لا يرانى فيه أحد ، وراء قطعة من الاثاث مثلا ، لأغرق فى ذكرى ما وقع لى . ولكن العجيب فى

الامر اننى كنت كأنما نسيت النهاية الفظيعة لما وقع فى بيت أبوى . كانت تخطر أمامى صور ووقائع .. والحق اننى كنت أتذكر كل شىء ، كنت أتذكر الليلة الاخيرة ، والكمان ، وأبى . كنت أتذكر كيف دبرت له المال .. أما التفكير فى هذه الاشياء ، أما تحليل هذه الاشياء ، فقد كنت عاجزة عنه كل العجز . لقد كانت هذه الذكريات تقبض صدرى ، وحين كنت أصل منها الى ذكرى أمى ، الى اللحظة التى ركعت فيهـــا أمام جثمانها أصلى ، كانت تسرى فى ظهرى قشـــعريرة باردة كالثلج ، فأرتجف ، وأطلق صرخة ضعيفة ، وتختنق أنفاسى ، ويبلغ انقباض صدرى ، وخفقـــان قلبى ، وذعرى ، حدا لا يسعنى معه الا أن أهرب من مخبئى .

لقد أسأت التعبير حين قلت انهم كانوا يتركوننى وحدى ، فالحق انهم كانوا يراقبوننى مراقبة دقيقة ، دون أن يظهر عليهم ذلك . لقد كانوا ينفذون فى هذا وصايا الامير ، الذى أمر أن لايزعجونى فى شىء ، وأمر مع ذلك أن لا أغيب عن بصرهم دقيقة واحدة .. فكنت ، من حين الى حين ، أرى أحد سكان البيت أو أحد الخدم ، يلقى نظرة على الغرفة التى أكون فيها ، ثم ينسحب دون أن يقول كلمة واحدة . ولقد أدهشنى هذا الانتباه وأقلقنى ، ولم أستطع أن أفهم له سببا ، **كنت أعتقد أنهم يراقبوننى لقصـــد خفى مبيت ، يريدون أن يصنعوا بى شيئا فيما بعد ، لذلك كنت أجهد أن أكتشف فى المنزل ركنا مخبأ أختفى فيه عند الضرورة** . وفى ذات مرة غامرت فصعدت السلم الكبير . انه سلم واسع من رخام

فرش بالسجاد ، وزين بالازهار ، وبروائع الخزف . وفى نهاية كل طبقة منه جلس حارسان طويلان ، يرتديان ثيابا موشاة وقفازات بيضاء ، وربطة عنق ناصعة البياض . نظرت اليهما قلقة ، ولم أستطع أن أفهم لم يجلسان هنالك ، ينظر أحدهما الى الآخر ، دون أن يقولا شيئا ، ودون أن يعملا شيئا !

وكنت أزداد سرورا ، يوما بعد يوم ، بهذا الطواف وحدى . ثم ان هناك سببا آخر كان يحدونى الى الهرب من الطابق الاعلى . كانت تعيش هنالك عمة للاميرة عجوز ، انقطعت عن الخروج ، ولم تكن ترى أحدا . لقد تركت هذه المرأة العجوز فى نفسى أثرا واضحا جدا . وشعرت أنها ان لم تكن أهم شخصيات المنزل ، فهى قريبة من ذلك . كان جميع من فى الدار يخضعون فى صلاتهم بها لمراسم فخمة ، بل ان الاميرة نفسها ، ذات النظرة الشامخة الآمرة ، كانت مضطرة أن تصعد فى زيارة خاصة لعمتها مرتين فى الاسبوع ، فى يومين معينين . كانت تزورها عادة فى الصباح ، ويدور بين السيدتين حديث رصين كثيرا ما تقطعه فترات من الصمت ، تملؤها العجوز بدمدمة صلواتها ، أو عد أورادها على سبحتها . وكانت الزيارات تطول أو تقصر وفقا لمشيئة العمة ، اذ كانت العمة تنهض فجأة ، وتقبل الاميرة على شفتيها ، وكان ذلك يعنى أن الزيارة قد انتهت . ولقد كان على الاميرة فى أول الامر ، أن تزور عمتها مرة كل يوم ، الا أن هذه المراسم قد تراخت بعد ذلك بموافقة السيدة العجوز ، وصار يكتفى

من الاميرة أن ترسل أحدا فى كل صباح يستفسر عن أنباء العمة . ثم ان العمة ، وقد طعنت فى السن كثيرا ، كانت تعيش منزوية . لقد كانت عذراء . وقد أرادت فى الخامسة والثلاثين من عمرها أن تدخل الدير ، الا أنها بعد أن قضت فيه سبعة عشر عاما دون أن تقطع عهد الترهب ، تركت الدير وعادت الى موسكو . أرادت أن تعيش هنالك مع أختها ، أرملة الكونت « ل » ، التى كانت صحتها تسوء سنة بعد سنة ، وأن تتصالح مع أختها الاخرى ، الأميرة « ك » ، بعد خصومة بينهما دامت عشرين عاما على أقل تقدير : الا أن هاته العجائز لم يستطعن ، فيما يقال ، أن يتفاهمن يوما واحداً ، وأردن ألف مرة أن ينفصلن دون أن ينفذن ذلك ، اذ كن فى كل مرة يشعرن فى آخر لحظة بحاجة بعضهن الى بعض ، لدفع الملل ومزعجات الشيخوخة . ورغم أن حياتهن العائلية هذه لم تكن جميلة ، ورغم الضجر الوقور الذى كان يخيم على مسكنهن النسوى بموسكو ، فقد كان المجتمع الراقى كله فى المدينة يشعر بأنه مضطر الى زيارة المنزويات الثلاث . كان الناس يعتبرونهن حارسات التقاليد الارستقراطية كلها ، ويرون فيهن الصورة الحية للنبالة القديمة . كانت الكونتة امرأة ممتازة ، تركت وراءها كثيرا من الذكريات الجميلة . كان جميع الذين يصلون من بطرسبرج يحتفظون لهاته السيدات بأولى زياراتهم . وكان جميع الذين يستقبلون فى منزلهن يستقبلون بعد ذلك فى كل مكان . الا أن الاختين انفصلتا ، بعد موت الكونتة . أما الاميرة « ك » ، وهى

الكبرى ، فقد بقيت فى موسكو ، لكى تصفى حساب نصيبها من تركة الكونتة التى توفيت عن غير ولد . وأما الصغرى ، المترهبة ، فقد مضت الى بطرسبرج تقيم عند ابن أخيها ، الامير «ك» . وبسبب هذا الحداد ، يقيم ولدا الامير ، كاتيا والكسندر ، عند عمتهما الكبيرة بموسكو ، يواسيانها فى وحدتها . ورغم أن الاميرة كانت تحب ولديها حبا هائما ، فانها لم تسمح لنفسها بأن تعترض على انفصالهما عنها طوال مدة الحداد . نسيت أن أقول ان الحداد كان ما يزال قائما يوم دخلت منزل الامير ، الا انه كان مشرفا على الانتهاء .

وكانت الاميرة العجوز ترتدى دائما ثوبا من صوف أسود تزينه ياقة صغيرة بيضاء تضفى عليها حقا هيئة راهبة . ولم تكن تترك سبحتها ، وكانت تمضى الى الصلاة فى كثير من الفخامة والجلال ، وتصوم كل يوم ، وتستقبل رجالا من أهل الوقار ، ومن الكنيسة ، وتقرأ الكتب المقدسة ، أى كانت على الجملة تعيش حقا حياة رهبنة . **وكان الصمت فى الطابق الاعلى رهيبا . كان لا يمكن أن يسمع فيه صرير باب يفتح أو أى صوت آخر ضئيل دون أن ترسل الآنسة العجوز أحد الخدم تسأل عن سبب هذه الضجة (كانت أذنها مرهفة السمع كأذن صبية فى الخامسة عشرة !) . وكان الجميع يتحدثون هنالك همسا ، ويمشون على رؤوس الاصابع .** وحتى الفرنسية المسكينة اضطرت ، رغم سنها ، أن تتنازل عن حذائها المفضل ، ذى الكعب : ان الاحذية ذات الكعب

ممنوعة فى الطابق العلوى . وقد أرسلت الاميرة ، بعد دخولى البيت بأسبوعين ، تسأل عن أمرى : من أنا ؟ وما وجودى فى البيت ؟ الخ .. فأسرعوا فى الاجابة على سؤالها باحترام عظيم . عندئذ أرسلت تسأل الفرنسية مرة أخرى ، عن السبب فى أنها لم ترنى بعد . فأدى ذلك الى حركة كبيرة فى البيت : أخذوا يسرحون شعرى ، ويغسلون وجهى ويدى ، دون ما داع الى ذلك ، ويعلموننى كيف أمشى ، وكيف أقدم لها احترامى واجلالى ، وأوصونى بأن أكون ألطف وأرق ، وكالوا لى كل أنواع التأنيب والتقريع . ثم أرسلوا رسولا يسأل الاميرة العجوز هل تود أن ترى اليتيمة . فقيل للرسول كلا ، وأمر بأن أحضر اليها فى الغد بعد الصلاة . لم يغمض لى جفن طوال الليلة كلها ، وقيل لى فيما بعد اننى هذيت . كنت أرانى أصلى بلا انقطاع ، أمام السيدة ، استرحم عفوها وغفرانها !

وأخيرا ، جاءت لحظة المثول بين يديها .. فرأيتنى أمام عجوز نحيلة قصيرة ، غارقة فى مقعد كبير . وأشارت الى أن أتقدم ، ووضعت نظاراتها على عينيها ، لترانى من كثب . أذكر أننى لم أفز باعجابها أبدا . وتفضلت فقالت اننى متوحشة حقا ، لا أعرف كيف أركع ولا كيف أقبل اليد . وانهالت على بأسئلتها ، فكنت لا أكاد أجيب ، حتى اذا سألتنى عن أبوى ، انفجرت باكية . وساء السيدة العجوز أن ترانى حساسة الى هذا الحد . وظنت مع ذلك أنها تواسينى اذ أمرتنى أن أفوض أمرى الى الله ، وان اضع

أملى فيه . ثم سألتنى عن المرة الاخيرة التى ذهبت فيها الى الكنيسة ، فلما لم أكد أعرف ما معنى هـــذا ، لان تربيتى الدينية كانت مهملة جدا ،ظهر على العجوز امتعاض لا يوصف. واستدعيت الاميرة الشابة ، وعقد اجتماع قررو! فيـــه أن يقودنى الى الكنيسة فى يوم الاحد القادم ، وتعهدت الاميرة العجوز بأن تدعو لى فى صلواتها . الا انها أمرت فى الوقت نفسه بأن أنصرف ، لان رؤيتى ، فيما قالت ، تؤلمها كثيرا .

لم أر فى كل هذا شيئا خارقا ، وأنا فيمـــا أنا فيه . الا أن الشىء المحقق الذى لا ريب فيه هو انها كرهتنى جدا . وفى هذا اليوم نفسه أرسلت تقول اننى أكثر من الحركة ، وان حركتى مسموعة من أول البيت الى آخره ، مع اننى فى الواقع ظللت طيلة اليوم قابعة فى مـــكانى لم أتحرك . لقد خلقت السيدة العجوز هذه الفكرة من خيالها ، وثبت ذلك فى اليوم التالى حين أرسلت تبدى هذه الملاحظة عينها . **الا اننى فى ذلك اليوم نفسه سقط من يدى فنجان ، فتحطم على الارض ، فذعرت الفرنسية وجميع الوصيفات ذعرا شديدا ، وأقصيننى فورا الى أبعد غرفة ، ولحقن بى وهن فريسة رعب هائل .**

لا أتذكر الآن كيف انتهت هذه القضية . ولكننى سعدت جدا بالنزول الى الحجرات الكبيرة السفلى ، والطواف فيها وحدى ، مطمئنة الى أننى لا أزعج أحدا .

وفى ذات مرة ، كنت جالسة فى احدى هـــذه الحجرات السفلى ، مطرقة الرأس ، مسندة وجهى الى يدى ، منذ ساعات ، أفكر ، وأفكر . لم يكن عقلى من النضـج ولا من

القوة بحيث أستطيع أن أعرف حزنى ، الذى كان مع ذلك يزداد ويزداد حتى ليخنقنى . وفجأة سمعت صوتا رقيقا ينبعث أمامى :

ـ ما بك ، أيتها الصغيرة المسكينة ؟

كان ذلك الصوت هو صوت الامير . وكان وجهه يعبر عن رحمة عميقة . فلما رفعت اليه بصرى ، ولمح فى نظرتى الهلاك والبؤس ، ترقرقت فى عينيه الزرقاوين دمعة .

وقال وهو يداعب رأسى :

ـ مسكينة أيتها اليتيمة .

فصرخت وأنا أشهق :

ـ كلا . كلا . كلا . لست يتيمة .

ونهضت ، ووثبت اليه ، فأمسكت بيده ، وأخذت أغرقها بالقبل والدموع ، وأنا أقول :

ـ كلا . كلا . لست يتيمة .

ـ ولكن ماذا بك ؟ ماذا بك يا عزيزتى الصغيرة ؟ يانيتوتشكا المسكينة ؟ ماذا بك ؟

صرخت وقد ازداد شهيقى :

ـ أين أمى ؟ أين أمى ؟

ولم أستطع أن أخفى حزنى ، فهويت على ركبتيه ، وأنا أقول :

ـ أين أمى ؟ قل لى أين هى !

ـ سامحينى يا صغيرتى ! آه . يا بنيتى المسكينة ..

فيها اذن كنت تفكرين .. ماذا صنعت ! تعـــالى معى ، يانيتوتشكا ، اسرعى .

وأمسك بيدى ، وجرنى بخطى سريعة . كان متأثرا الى أعماق نفسه . ودخل بى أخيرا فى غرفـة لم أكن أعرفهـا بعـد .

كانت تلك الغرفة هى غرفة المصلى . انها مظلمة ، فيما عدا القناديل الصغيرة تنعكس أضواؤها الخفيفة على الاطر المذهبة ، وعلى الاحجار الكريمة فى الايقـــونات . وكان القديسون ، من قلب الاطر اللامعة ، ينظرون الى فى غموض. لا شيء فى هذا المكان يشبه الحجرات الاخرى . ان جوها جو سرى ، وقور ، حتى ان نفسى تملكها شعور قريب من الخوف. وهذا ، على كل حال ، أمر طبيعى فى الحالة الصحية التى كنت فيها . وبادر الامير فأركعنى أمام صورة للعذراء ، وركع هو الى جانبى ، وهو يقول بصوت ناعم متهدج :

– صلى ، ياصغيرتى ، صلى ، سنصلى معا .

ولكن لم يسعفنى أى دعاء . كنت منفعلة جدا ، خائفـة جدا كذلك . تذكرت كلمات أبى ، فى تلك الليلة الاخيرة ، أمام جثمـــان أمى ، وانتابتنى أخيرا نوبة عصبية . ورجعت الى السرير مريضة . وكدت أموت أثناء هذه النكسة . واليكم كيف جرت الامور :

فى ذات صباح قرع سمعى اسم معروف هو اسم «س» ، لفظه أحد الى جانب سريرى ، فارتعـــدت . وهاجمتنى الذكريات تترى ، وقضيت ساعات من الهـذيان أبحث فى

ذاكرتى ، وأحلم ، وأتعذب . وحين استيقظت ، بعد مدة طويلة ، كان الظلام يخيم فى الغرفة . كان القنديل قد انطفأ ، وكانت الخادمات قد مضين ، مع أن العادة أن يبقين الى جانبى . وفجأة سمعت أصوات موسيقى آتية من بعيد . كانت هذه الاصوات تخف أحيانا حتى لا تسمع ، وتدوى أحيانا أخرى كأنها تأتى الى . لا أدرى أى شعور اجتاحنى فى تلك اللحظة ، ولا أفهم هذا القرار الذى انبجس فى دماغى المريض على حين غرة : رأيتنى أنهض من سريرى ، وأرتدى ثوبى الاسود ، ثوب الحداد ، بسرعة ، دون أن أملك القوة لذلك ، ثم أترك الغرفة وأنا أتحسس طريقى . لم ألق أحدا ، لا فى الغرفة المجاورة ، ولا فى الغرفة التى دخلتها بعد ذلك . ووجدتنى اخيرا فى الممر . اقتربت الاصوات . فى وسط الدهليز كان يقع السلم الذى اعتدت أن أهبط عليه الى القاعات الكبيرة . ان الانوار تتلألأ فيه ساطعة . وسمعت وقع أقدام فى أسفل فانزويت فى ركن حتى لا أرى . ولم أدخل فى الدهليز الا حين اعتقدت أن احدا لن يرانى . كانت الموسيقى تنبعث من حجرة مجاورة . وكانت ضجة الاصوات هنالك تنبىء بوجود عدد من الناس كبير . كان أحد أبواب القاعة ، وهو الباب المطل على الدهليز ، مغطى بستار مزدوج من مخمل قرمزى . رفعت أحد ذيول الستار الاول ، واختبأت وراءه . كان قلبى يخفق خفقانا قويا ، وكنت لا أكاد أقوى على الوقوف على قدمى . غير اننى استطعت ، بعد بضع دقائق ، أن أملك زمام انفعالى ، وجازفت فرفعت ذيل

الستار الثانى . يا الهى ! تلك القاعة الواسعة المظلمة التى كنت أخاف أن أدخلها ، تسطع الآن بألوف المصابيح ! بحر من النور أغرقنى . وعشيت عيناى من شدة النور ، فقد تعودتا على الضوء الخفيف .

وهب على وجهى هواء عطر ، دافئ . كان الناس فى داخل الحجرة يذهبون ويجيئون ، وكان الفرح باديا فى وجوههم جميعا . والنساء يرتدين أثوابا ناصعة مترفة . لم أر الا نظرات مشرقة بالسرور . وتجمدت فى مكانى من فرط الدهشة . كان يبدو لى مع ذلك أن قد سبقت لى رؤية هذا كله ، فى مكان ما ، فى الحلم .. وتراءى لى بيتنا الحقير ، عند المساء ، والنافذة العالية ، والشارع العميق بفوانيسه الساطعة ، والنوافذ المقابلة بستائرها الحمر ، والعربات المصطفة أمام درجات الباب ، والخيول الشامخة تكدف وتصهل ، والطيوف على النوافذ .. وسمعت صراخا ، وضوضاء ، والموسيقى خافتة لبعدها . قلت فى نفسى : « آه . هذه هى الجنة . هنا الجنة اذن . هذا هو المكان الذى كنت أريد أن أمضى اليه مع أبى المسكين . لم يكن ذلك حلما !.. لقد رأيته هكذا تماما ، فى الماضى ، فى خيالى ، فى أضغاثى . »

وازدادت نفسى التهابا ، على التهابها بحمى المرض .. وتفجرت من عينى دموع حماسة لا توصف .. وطفقت أبحث بنظرى عن أبى . قلت فى نفسى ، وقد وثب قلبى ، وتقطعت أنفاسى : « لابد أن أبى هنا . انه هنا حتما . » وفجأة سكتت الموسيقى ، وماجت القاعة . وسمعت همسا من كل صوب .

وأخذت أحدق فى كل الوجوه التى كانت تمر أمامى ، جاهدة أن أعرف احدا . وفجأة اجتاح القاعة اضطراب شديد جدا . فلمحت على المنبر شيخا نحيلا طويلا بمسك بكمان . كان وجهه الشاحب يبتسم ، وكان ينحنى الى جميع الجهات فى تحية لطيفة . وعاد الصمت . انه صمت عميق ، حتى لكأن الناس قد حبسوا أنفاسهم . كل واحد ينظر الى الشيخ ، كل واحد ينتظر . أخذ الشيخ كمانه ، وهز الاوتار بقوسه . بدأت الموسيقى . ولكنى لم ألبث أن شعرت بأننى أختنق . ان هذه الاصوات تزيد اضطرابى الى حد لايوصف . أصبحت لا أستطيع أن أتنفس . اننى أعرف هذه الاصوات. لقد سمعتها من قبل . ان فيها انذارا ، انذارا بشىء رهيب ، غريب ، يتضح الآن فى أعماق نفسى . وانطلقت الاصوات أسرع وأعنف . ثم جاءت الآهات والزفرات وشهقات النحيب . انها صلاة تهوى الى اليأس .

كان كل ذلك يصبح مألوفا لدى أكثر فأكثر . الا أن قلبى كان يأبى أن يصدق . وشددت أسنانى بعضها الى بعض حتى لا أعول من الالم ، وتمسكت بالباب حتى لا أقع . وكنت فى بعض الاحيان أغمض عينى ثم أفتحهما ، آملة اننى سأخرج من حلم لأجد نفسى فى منزلنا ، حيث سمعت هذه الموسيقى ، فى الليلة الفظيعة . وكنت اذا فتحت عينى ، أحدق فى الجمهور لأتيقن . كلا . هؤلاء أناس آخرون ، هذه وجوه أخرى . وبدا لى ان كل واحد من الجمهور ينتظر– مثلى – حدثا ، وانهم جميعا ، مثلى ، غارقون فى غم عميق . بدا لى

انهم جميعا يودون لو يصرخون مع هذه الآهات ، وهـذه الانات ، ليخففوا العبء عن نفوسهم . الا ان الآهات والانات تزداد حدة ، وألما ، وعمقا . وفجأة ، انفجر الصوت الاخير ، صرخة طويلة ملحة ، فانتفضت . **لم يبق من شك . انهـا تلك الصرخة عينها . انني أعرفها . لقد سـمعتها . هى الصرخة التى صعقتنى فى تلك الليلة** . ومر برأسى خاطـر كالبرق : « بابا . بابا . انه هنا . هو الذى يدعونى . وهذا كمانه ! » .. وأطلق الجمهور زفرة طويلة واسعة . وانطلق التصفيق محموما يهز القاعة هزا . وانشق صدرى عن شهقة قوية صارخة . لم أطق أن أحبس نفسى ، فرفعت الستار ، وانطلقت فى الصالة مسرعة ، وأنا أصرخ :

ــ بابا . بابا . أهذا أنت ؟ أين انت ؟

لا أدرى كيف وصلت الى الشيخ الطويل . لقد تركونى أمر ، وأفسحوا الطريق أمامى . وارتميت عليه بصرخة هائلة . كنت أعتقد أننى اقبل ابى . وفجأة شعرت بيدين نحيلتين طويلتين تمسكان بى . **ورأيت عينين سـوداوين تحدقان فى عينى ، كأنهما تحرقانى بلهيبهما . نظرت الى الشيخ ، فاذا بى أقول فى نفسى فجأة : « كلا . ليس هذا بابا . هذا قاتله ! » وتملكتنى حميا هائلة . وخيل الى أننى أسمع ضحكا فوق رأسى ، وان هذا الضحك يترجع فى القاعة كلها . ثم لم أشعر بشىء ..!**

- ٥ -

كانت تلك نكستى الثانية والاخيرة .

حين فتحت عينى رأيت وجه طفلة منحنية على ، وجه صبية فى سنى ، فما أن رأيتها حتى مددت لها ذراعى . منذ أول نظرة شاعت فى نفسى كلها عاطفة رقيقة فرحة . تصور وجه طفلة هى فى الجمال آية ، جمال مشرق يأسر البصر ، وجها من تلك الوجوه التى تنفعل أمامها اعجابا ، من تلك الوجوه التى اذا رأيتها وقفت مشدوها لا تستطيع حراكا من فرط افتتانك . ذلك هو وجه « كاتيا » ابنة الامير التى عادت من موسكو . فلما مددت اليها ذراعى طافت على ثغرها ابتسامة ، وشعرت بارتياح كبير ينفذالى أعماق كيانى .

ونادت الاميرة الصغيرة أباها ، وكان على بعد خطوتين يتحدث مع الطبيب .

قال ، وقد أمسك بيدى ، واشرق وجهه اشراقه الفرح الصادق :

— الحمد لله !

ثم أردف يقول بكلمات سريعة ، على عادته :

— اننى سعيد ، سعيد جدا . جدا . هذه كاتيا ابنتى .

لتتعرف كل منكما الى الاخرى . هل ترين ؟ ستكون هذه صديقتك ! هيا استعيدى صحتك بسرعة ، يانيتوتشكا ، أيتها الصغيرة الشيطانة التى أخافتنى كل ذلك الخوف !

تحسنت صحتى بسرعة كبيرة . وما انقضت أيام قليلة حتى استطعت أن أنهض . وكانت كاتيا تأتى الى قرب سريرى ، كل صباح ، باسمة مرحة . كان الضحك لا يستطيع أن يهجر ثغرها . وكان ظهورها هو السعادة عينها لى . آه ! كم وددت لو أقبلها . الا أن هذه الشيطانة الصغيرة لم تكن تبقى أكثر من دقائق . انها لا تستطيع أن تستقر فى مكان . لا بد أن تتحرك ، أن تركض ، أن تثب ، أن تحدث صخبا ، أن ترجع الاصداء فى البيت كله . كان ذلك حاجة لها ملحة . لذلك أوضحت لى منذ زيارتها الاولى أنه لاشىء يزعجها كالجلوس الى جانب سريرى ، وأنها لهذا لن تأتى الا نادراً ، وانها ستأتى مع ذلك لأنها تشعر نحوى بالشفقة ، واننى سأرى ، على كل حال ، حين أبل من مرضى ، اننا سنتفاهم تفاهما أعمق وأكمل . كانت الكلمة الاولى التى توجهها الى كل صباح هى هذا السؤال السريع :

ـ هيه ؟ شفيت ؟

ولما كنت شاحبة نحيلة ، رغم كل شىء ، وكانت الابتسامة لاتجد سبيلها الى وجهى الحزين الا بصعوبة ، فسرعان ما كانت الاميرة تقطب حاجبيها ، وتهز رأسها ، وتضرب الارض بقدميها ، مستاءة مغتاظة .

ـ غريب . مع اننى قلت لك بالامس أن تبلى من مرضك. فلماذا لم تشفى ؟ لعلهم لا يطعمونك كثيرا ؟

فأجبت أجاريها ، لأننى كنت أشعر أمامها بخجل شديد :

ـ كلا . لايطعموننى كثيرا .

لم يكن بى الا رغبة واحدة ، هى أن أفوز برضاها . لذلك كنت أخشى كل كلمة ، وكل حركة .. وكان افتتانى بوصولها يزداد قوة وعنفا ، يوما بعد يوم . فاذا جاءت لم يفارقها نظرى لحظة ، بل لقد كان يتفق لى ـ حين تمضى الى سبيلها ـ أن أظل أتأمل الجهة التى غابت فيها ، مشدوهة مفتونة ! .. **كنت أثناء غيابها أتحدث اليها طويلا ، أتصور أنها صديقتى ، فألعب معها ، وأخاتلها ، ونبكى معا اذا أنبنا أحد على خطيئة ما . الخلاصة : كنت أحلم بها حلم العاشق بمعشوقه . وكنت أرغب رغبةجنونية فى أن أعافى وأن أسمن بأقصى سرعة ممكنة ، نزولا على نصيحتها .**

حين كانت كاتيا تصل عند الصباح لتصرخ قبل كل شىء : « مازلت مريضة ؟ مازلت نحيلة ؟ » كنت أرتاع كأننى مجرمة . كانت كاتيا تشعر بدهشة صادقة حين ترى أن يوما كاملا مؤلفا من أربع وعشرين ساعة لم يكن كافيا لشفائى .. حتى لقد انفجرت غاضبة أخيرا :

– هل تريدين أن آتيك بفطيرة ؟ ستأكلينها ، فتسمنى بسرعة !

أجبت ، وقد ملأنى سرورا أنها ستعود مرة ثانية :

– نعم . هاتى .

وكانت الاميرة الصغيرة بعد أن تسألنى عن صحتى ، تجلس الى جانبى وتأخذ تحدق فى بعينيها السوداوين . وفى أول الأمر كانت تفحصنى هكذا فى كل لحظة ، من أخمص القدم الى قمة الرأس ، وقد بدت على وجهها دهشة ساذجة . الا أن حديثنا لم يكن يجرى متصلا هينا . فقد كنت أظل وجلة خجلة ، وكنت برغم أننى أموت شوقا الى التحدث معها ، أخاف تأنيبها .. فكانت بعد فترة من الصمت ، تبادرنى قائلة :

– لماذا لا تقولين شيئا ؟

فأجيب ، سعيدة جدا بوجود عبارة يمكن دائما أن يبدأ بها الحديث :

– وأبوك ، كيف حاله ؟

– حاله حسنة . شربت اليوم فنجانين من الشاى بدلا من فنجان واحد . وأنت ؟

– فنجان واحدا .

ويعود الصمت .

– اليوم أراد « فالستاف » أن يعضنى .

– أهو كلب ؟

ــ نعم . كلب .. أما رأيته ؟

ــ بلى . رأيته ؟

ــ اذن لماذا تسألين هل هو كلب ؟

.. ولا أعرف بم أجيب ، فتنظر الى الاميرة الصغيرة دهشة :

ــ قولى هل تسرين حين أكلمك ؟

ــ جدا . تعالى أكثر مما تجيئين .

ــ قالوا لى أن مجيئى يسرك . ولكن غادرى فراشك بسرعة . سآتيك اليوم بفطيرة . هذا وعد أكيد . ولكن ماذا بك حتى تصمتى هكذا ؟

ــ لاأعرف .

ــ ألا تنقطعين عن التفكير ؟

ــ نعم أفكر فى أشياء كثيرة .

ــ أما أنا فيقولون عنى أننى أتكلم كثيرا ولاأفكر فى شىء . هل الكلام اساءة ؟

ــ أبدا . أبدا . اننى أسر حين تتكلمين .

ــ يجب أن نسأل عن هذا مدام ليوتار . انها تعرف كل شىء . ولكن فيم تفكرين ؟

قلت بعد صمت :

ــ فيك انت .

ــ **هل يسرك هذا ؟**

ــ نعم .

ـ اذن فأنت تحبيننى !

ـ نعم .

ـ أما أنا فلا أحبك بعد . انك نحيلة جدا . انتظرى ، سآتيك بفطيرة . الى اللقاء . الى اللقاء .

..وبعد أن قبلتنى الاميرة الصغيرة ، تقبيلا خاطفا ، غابت عن الغرفة .

ومع ذلك فقد أتتنى بعد الغداء بالفطيرة التى وعدتنى بها . جاءت الى كالمجنونة ، وهى تضحك من شدة الفرح ، لأنها تطعمنى طعاما منعت عنه !

ـ كلى . انه طعامى احتفظت به لك . والآن الى اللقاء .

وغابت بمثل السرعة التى أتت بها !

وفى مرة أخرى ، وثبت الى جانبى ، فى ساعة غير منتظرة أيضا ، بعد الغداء . كان شعرها منفوشا ، وخداها محمرين ، وعيناها تضيئان ببريق قوى . لاشك أنها كانت تركض وتقفز منذ ساعة أو ساعتين .

صرخت بسرعة ، وهى تلهث ، وقد بدت عليها الرغبة فى العودة الى ألعابها على الفور :

ـ هل تعرفين اللعب بالكرة الطائرة ؟

ـ كلا .

قلت ذلك وأنا أشعر بأسف مر على اننى لا أستطيع أن أقول نعم .

ـ طفلة عجيبة حقا ! هيا . ابلى من مرضك، وسأعلمك .

جئت لأسألك هـذا فحسب . اننى ألعب الآن مع مدام ليوتار . الى اللقاء . انها تنتظرنى .

واستطعت أخيرا أن أترك سريرى ، رغم كونى ضعيفة ، مجردة من القوة . **وكانت أول فكرة راودتنى عندئذ هى أننى لن أنفصل بعـد الآن أبدا عن كاتيـا . ان عاطفـة لا تقاوم تدفعنى نحوها . كنت ألتهمها بعينى التهاما ، وكان هـذا يثير دهشتها كثيرا . كان انجذابى اليها من القوة بحيث اننى استسلمت لعاطفتى الجديدة هذه فى حماسة لم تخف أخيرا على كاتيا** . وبدا لها ذلك فى أول الأمر شيئا غريبـا بل عجيبا . وأذكر أننى ، ذات مرة ، وكنا نلعب معا ، رأيتنى أرتمى على عنقها وأقبلها دون أن أستطيع كبح هذه الرغبـة الجامحة ، فما كان الا أن تخلصت منى وأمسكت بيـدى ، وقطبت حاجبيها كأننى أهنتها ، وسألتنى :

ـ ما بك ؟ لماذا تقبليننى هكذا ؟

وانتفضت لهذا السؤال المباغت ، وخجلت خجلا شديدا ، ولم أستطيع أن أجيب بكلمـة . فهزت الاميرة الصغـيرة كتفيها علامة الحيرة والدهشة (وكانت هذه حركة مألوفة فيها) وعضت شفتيهـا المتلئتين ، فى جد ، وانقطعت عن اللعب ، ثم مضت الى ركن من الاركان . فجلست على أحد المقاعد . وظلت فى ركنها ذاك مدة طويلة تتأملنى ، وتفكر ، كأنها تحل لغزا عرض لفكرها فجأة . وهذا أيضا كان عادة

من عاداتها فى اللحظات الحرجة ، بحيث لم أستطع خلال مدة طويلة أن أتلاءم مع وثبات طبعها المفاجئة .

واعتقدت أننى أخطأت ، وأيقنت على كل حال أن هذا لابد أن يبدو غريبا . على أننى ظللت أتعذب ، فكنت أتساءل : لماذا لم أستطع أن أفوز منذ اللحظة الأولى ، وإلى الأبد ، برضى كاتيا .. وأن أصبح صديقتها .

كان اخفاقى هذا يحرقنى حرقا ، وكنت أشعر أننى على وشك أن أجهش باكية كلما وجهت الى كلمة قاسية، أو كلما نظرت الى نظرة حذرة . وكان حزنى يزداد يوما بعد يوم بل ساعة بعد ساعة ، لأن الأمور لاتجرى مع كاتيا سهلة يسيرة. **وشعرت بعد قليل من الوقت أنها بدلا من أن تحبنى أخذت تكرهنى . ان كل شىء ، لدى هذه البنية ، يتم بصورة سريعة ، مفاجئة ، بل كان يمكن أن تقول وحشية ، لولا أن لطفا مفطورا كان يثوى وراء هذه الاندفاعات السريعة البارقة التى تصدر عن طبع متحمس صادق .**

والواقع أن ماشعرت به نحوى فى أول الأمر كان نوعا من الشك ، لم يلبث أن انقلب الى احتقار ، والسبب فى هذا الاحتقار ، فيما يخيل الى ، هو أننى لم أستطع أن أشاركها فى ألعابها المختلفة . كانت الاميرة الصغيرة تحب الحركة والركض ، كانت صحتها قوية ، وكانت نشيطة ، حاذقة ، بينما كنت أنا نقيض هذا تماما . لقد ظللت بعد مرضى

ضعيفة ، هادئة ، غارقة فى التفكير والصمت . لم يكن يشوقنى أى نوع من أنواع اللعب .. أى لم أكن أملك أى شىء يتيح لى الفوز بقلب كاتيا . ثم اننى بطبيعتى لا أطيق أن أشعر أن أحدا غير راض عنى . واذا شعرت بشىء من ذلك فسرعان ما ينتابنى حزن شديد ، وسرعان ما أفقد كل شجاعة ، وتخوننى قواى ، فما أستطيع أن أصلح أخطائى وأن أبدل الأثر السىء الذى تركته فى نفس غيرى ؛ بأثر حسن . ومعنى هذا أنه متى كرهنى أحد ، كان كرهه الى غير رجعة .. وهذا ما لم تستطع كاتيا أن تفهمه !

وحين لاحظت ، بعد أن ظلت ساعة طويلة تشرح لى لعبة الكرة الطائرة بغية أن تعلمنيها ، حين لاحظت أننى لم أفهم شيئا البتة ، أدهشها ذلك الى حد الخوف ، وأخذت تنظر الى على عادتها نظرة استغراب . أما أنا فشعرت أننى أوشك أن أجهش فى البكاء . وبعد أن فكرت فى أمرى مرتين أو ثلاثا دون أن تصل الى نتيجة ، هجرتنى تماما ، وأصبحت تلعب وحدها ، دون أن تدعونى الى مشاركتها أبدا ، ودون أن توجه الى كلمة واحدة خلال أيام طويلة ! .. وكان تأثير ذلك فى نفسى قويا لا أكاد أطيق احتماله . وثقلت على وحدتى الجديدة أكثر من وحدتى القديمة . ثم لم ألبث أن عدت الى حزنى ، واجتاحتنى أفكار سود ...

ولاحظت مدام ليوتار ، وكانت تراقبنا ، هذا التغير الذى طرأ على علاقتنا ، وانتبهت خاصة الى صد كاتيا وهجرها

اياى . لذلك اتجهت اليهـــا رأسا ، وأنبتهـــا على ذلك ، وطلبت اليها أن تحسن سلوكها معى . الا أن الاميرة الصغيرة قطبت حاجبيها ، وهزت كتفيها ، وصرحت بأنهـــا لا تعرف ماذا تصنع بى ، وقالت اننى أظــل طوال الوقت أفكر ، وأن الأفضــل لها أن تنتظر أخاهـــا « ساشا » الذى سيعود من موسكو عما قريب ، وأن الحياة معه ستكون أحفل بالسرور وأمتع .

غير أن مدام ليوتار لم تقنع بهذا الجواب . فنبهت كاتيا الى أننى ما زلت مريضة ، واننى لا أستطيع أن أكون فى مثــل مرحها وصخبها . بل أضافت الى ذلك أن هدوئى خير من حركتها ، لأن كاتيا تتجاوز الحدود : أليست ترتكب كثــيرا من الحماقات ؟ ألم توشك ، أول أمس ، أن يفترسها الكلب ؟ الخلاصة أن مدام ليوتار قرعت الاميرة الصغيرة بلا رحمة ، وأرسلتها الى — لمصالحتى — فورا .

أصغت كاتيا الى مدام ليوتار فى انتباه شديد ، كأنما هى تدرك شيئا جديدا وصحيحا من وراء هــذا التأنيب . ثم مالبثت أن تركت العجلة التى كانت تجرى وراءها فى القاعة ، واقتربت منى ، وســألتنى دهشـــة ، وهى تنظر الى نظرة رصينة :

— هل تريدين حقا أن تلعبى ؟

— لا ..

قلت ذلك من فرط خوفى عليهـــا وعلى من تأنيبات مدام ليوتار .

ـ اذن ماذا تريدين ؟

ـ أفضل أن أظل جالسة . اننى لا أستطيع أن أركض . ولكن لا تغضبى ياكاتيا ، اننى أحبك كثيرا .

ـ حسنا ، اذن سألعب وحدى ..

قالت ذلك فى رقة ونعومة ، وفى لهجـــة من يكتشف ، دهشا ، انه ليس بمذنب . ثم أضافت :

ـ والآن ، الى اللقاء . ولن أغضب منك .

فأجبت وأنا أنهض وأمد لها يدى :

ـ الى اللقاء .

ـ لعلك تريدين أن تقبلينى ؟

قالت ذلك بعد لحظة من تفكير ، لعلها تذكرت فيها المشكلة التى قامت بيننا بصدد ذلك . وكان واضحا أنهـــا تريد أن تفعل كل ما تستطيع فعله لادخال السرور الى نفسى ، بغية أن تتخلص منى بأقصى سرعة ممكنة وعلى أحسن نحو .

قلت فى رجاء خجول :

ـ اذا شئت .

فاقتربت منى ، وقد اكتسى وجههـا طـابع الجـد ، ولم تختلج شفتاها بابتسامة ، ومنحتنى قبلـة . فلما أتمت هكذا كل ما طلب منهـا ، بل أكثر مما طلب منها ، اسعادا لهـذه البنية الصغيرة التى أرسلت اليها ، هربت راضية مطمئنة .

وسرعان ما أخذت تدوى من جديد فى أرجاء الغرف جميعا ضحكاتها الصاخبة وصرخاتها . ودام الأمر على هذه الحال الى أن عادت من لعبها لاهثة ، وارتمت على أحد المقاعد تستريح وتستجمع قواها الغضة . وظلت طوال السهرة تنظر الى فى ارتياب وحذر . كان واضحا اننى أبدو لها طفلة عجيبة شاذة ، وكان واضحا انها تود أن تسائلنى مستوضحة أمرى . ولكن لا أدرى لم أمسكت فى هذه المرة ..!

وكانت دروس كاتيا ، عادة ، فى الصباح . وكانت مدام ليوتار تعلمها الفرنسية ، ولو ان تعليم الفرنسية هذا كان عبارة عن تكرار قواعد النحو ، وقراءة اقاصيص لافونتين . ولم تتعلم كاتيا شيئا كثيرا ، اذ كان من الصعوبة بمكان حملها على الجلوس والقراءة خلال ساعتين فى كل يوم . لكنها قررت أخيرا أن تتعلم نزولا على رغبة أبيها ، واطاعة لأوامر أمها : كانت اذا قطعت على نفسها عهدا تلتزمه وتحققه بدقة . وقد أوتيت كاتيا مواهب ممتازة ، فكانت تفهم سريعا، **غير انه كان لها ، مع ذلك ، بعض العيوب : كانت اذا استعصى عليها فهم أمر من الامور ، تحاول أن تفهمه وحدها ، ولا تطيق أن تسأل أحدا شرحا ، لأنها تشعر أن السؤال عار !...** وقيل أنها كانت فى بعض الاحيان تظل أياما بأكملها تصارع سؤالا لا تستطيع حله .. وكان يغضبها أن لا تقدر على حله وحدها ، دون الاستعانة بأحد ، لكنها لم تكن تمضى الى مدام ليوتار لتستنجد بها ، الا فى أحوال نادرة ، حين تعجز عجزا

تاما . وكان أمرها يجرى على هذا النحو فى كل ما تصنع : تفكر وتتأمل أكثر مما يظن فيها لأول وهلة . ولكنها فى الوقت نفسه مسرفة فى السذاجة بالنسبة الى سنها . وكانت فى بعض الاحيان تطرح أسئلة غبية حقا ، وفى أحيـــان أخرى كانت اجاباتها لا تخلو من براعة وفطنة ..

وأخيرا أصبحت صحتى تسمح لى بأن أتعلم شـيئا أنا الاخرى ، فامتحنتنى مدام ليـــوتار لتعرف مقـدرتى ، فاكتشفت أننى أقرأ قراءة حسنة جدا ، لكنى أكتب كتـابة سيئة جدا ، وان من الضرورة بمـكان أن تعلمنى الفرنسية حالا .

لم أحتج على ذلك .. وذات صباح ، رأيتنى جالسة مع كاتيا جنبا الى جنب ، الى منضدة العمل . وأظهرت كاتيا ، فى هذه المرة ، كأنما عن قصد ، كسلا وغباء ، حتى أنكرتهـا مدام ليوتار !.. أما أنا فقد تعلمت الابجدية الفرنسية فى هذه الجلسة وحدها ، وجهدت أن أرضى معلمتى بكل ما أوتيت من قوة . وفى نهاية الدرس كانت مدام ليوتار غاضبة جدا من كاتيا ، فقالت لها وهى تشير الى :

ـ انها مريضة تدرس لاول مرة ، ومع ذلك فقـد بذلت عشرة أضعاف ما بذلت انت . ألا تشعرين بالخجل لهذا ؟

فسألتها كاتيا دهشة :

ـ اذن فهى تعرف أكثر مما أعرف ! ولكن كيف ؟ انهـا ما زالت تتعلم الابجدية ..

– كم درسا استغرقت أنت فى تعلمها ؟

– ثلاثة ..

– أما هى فقد استغرقت درسا واحدا . معنى هذا انها أسرع منك فى التعلم ثلاث مرات ، وانها ستتفوق عليك بعد قليل . أليس كذلك ؟

ففكرت كاتيا لحظة ، ثم احمر وجهها احمرارا شديدا حين أدركت أن مدام ليوتار على حق . هكذا كان حالها دائما : **حين تؤنب ، سواء لذنب اقترفته أو لاخفاق فى الدرس أصابته ، فانها تحمر ، ويحرقها الشعور بالعار ، أو الحزن ، أو الكبرياء الجريحة . وفى هذه المرة كادت الدموع تنفجر من عينيها ، غير أنها حبستها ، ونظرت الى كأنها تريد أن تصعقنى ..**

وفهمت فورا ما بها : لقد كان كبرياء الطفلة المسكينة عظيما . وحين بعدنا عن عينى مدام ليوتار أردت ان أسرع فأقول لها ، تخفيفا عنها ، انه ليس ذنبى ان الفرنسية خاطبتها بهذه اللهجة ، غير أن كاتيا تظاهرت بأنها لا تسمع ما أقول ، وظلت صامتة .

وبعد ذلك بساعة ، دخلت الى الغرفة التى كنت جالسة فيها أقرأ ، ولا أفكر الا فيها . كان يعذبنى ويخيفنى أن أتصور أنها ، مرة أخرى ، لا تريد أن تكلمنى . ونظرت الى ساهمة ، وجلست على الديوان كعادتها ، ولم تحول نظرها عنى خلال نصف ساعة . ثم لم أتمالك نفسى ، فأرسلت اليها

نظرة مستفهمة .

فسألتنى كاتيا :

ـ هل تحسنين الرقص ؟

ـ كلا .

ـ أنا أحسنه . .

صمت . .

ـ هل تحسنين العزف على البيانو ؟

ـ كلا . .

ـ أنا أحسنه . والواقع أن تعلمه عسير . .

صمت . .

ـ تقول مدام ليوتار انك أذكى منى .

ـ كانت مدام ليوتار مستاءة منك ، فقالت ذلك .

ـ وبابا هل يستاء أيضا ؟

ـ لا أدرى .

صمت جديد .

وضربت الاميرة الصغيرة الارض بقدمها الصغيرة ، وقد فرغ صبرها . ثم لم تستطع أن تخفى مضضها ، فسألت :

ـ اذن ستهزئين بى لانك أسرع فهما منى !

فصرخت وأنا أثب من مكانى لأسرع اليها وأقبلها :

ـ أبدا . أبدا .

وفجأة ، قالت مدام ليوتار ، وكانت تصغى الى حديثنا

منذ خمس دقائق ، مخاطبة كاتيا :

– ألا تخجلين من هذا القول ، ومن طرح أسئلة كهذه؟ .. أسفى عليك يا آنسة . تحسدين هذه الطفلة البائسة وتدلين عليها بأنك تحسنين الرقص والعزف على البيانو . أسفى عليك يا آنسة . سأروى هذا لأبيك !

والتهب خد الاميرة الصغيرة بحمرة قانية .. بينما استطردت المربية :

– هذا لا يليق . انك تعذبينها بأسئلتك هذه . كان أهلها أناسا فقراء فلم يستطيعوا أن يستأجروا لها مربية تعنى بتعليمها . وما تعرفه قد تعلمته وحدها لان لها قلبا نبيلا . يجب عليك أن تحبيها بدلا من أن تحقدى عليها . عيب . عيب . أذكرى أنها يتيمة ، وان ليس لها أحد فى هذا العالم . لم يبق الا أن تدلى عليها بأنك أميرة ، وانها ليست بشىء ، سأتركك وحدك . فكرى فيما قلته لك ، واصلحى نفسك .

وفكرت الاميرة الصغيرة ، يومين كاملين ! .. خلال يومين كاملين لم تدو قهقهاتها وصرخاتها فى البيت . وكنت اذا استيقظت فى الليل ، أسمعها تتم فى المنام حديثها مع مدام ليوتار . لقد ضعفت خلال هذين اليومين ، وفقد وجهها الزاهر شيئا من ألوانه . وأخيرا ، فى اليوم الثالث ، التقينا فى القاعة الكبرى ، فى أسفل . كانت الاميرة الصغيرة خارجة من غرفة أمها ، فلما رأتنى ، توقفت ، ثم جلست أمامى ، قريبة

منى . وانتظرت ما سيقع ، مرتاعة ، مرتجفة ، وأخيرا سألتنى :

ـ نيتوتشكا ، لماذا أنبونى ، بسبك ؟

فأجبت أبرىء نفسى :

ـ لم يكن ذلك بسببى .

ـ ألم تقل مدام ليوتار اننى أسأت اليك ؟

ـ كلا ، يا كاتيا ، كلا ، لم تسيئى الى .

فهزت الاميرة الصغيرة كتفيها ، علامة الشك فيما أقول . ثم سألت بعد لحظة من الصمت :

ـ ولماذا تبكين طوال الوقت ؟

فأجبت من خلال دموعى :

ـ لن أبكى اذا شئت .

ومرة أخرى هزت كتفيها .

ـ ولكن هل كنت تبكين فى بيتكم دائما مثلما تفعلين الآن ؟

لم أجب .

ثم سألتنى فجأة ، بعد صمت جديد :

ـ **ولماذا أنت فى بيتنا ؟**

فنظرت اليها دهشة ، وكأن طعنة نفذت فى قلبى . ولم أستطع أن أجيب الا بعد أن استعدت أنفاسى . قلت :

ـ لأننى يتيمة .

ـ **وكان لك بابا وماما ؟**

ـ نعم .

ـ وكانا لا يحبانك ؟

ـ بلى . كانا يحبانى .

قلت ذلك بصعوبة .

ـ وكانا فقيرين ؟

ـ نعم .

ـ فقيرين جدا ؟

ـ نعم .

ـ ولم يعلماك شيئا ؟

ـ بلى . علمانى القراءة .

ـ هل كان عندك لعب ؟

ـ لا .

ـ هل كنت تأكلين فطائر ؟

ـ لا .

ـ ماعدد حجرات بيتكم ؟

ـ حجرة واحدة .

ـ حجرة واحدة ؟

ـ واحدة .

ـ والخدم ، هل كان عندكم خدم ؟

ـ لا .

ـ ومن كان يخدمكم اذن ؟

ـ كنت أنا أشترى الاشياء من السوق .

كانت أسئلة كاتيا تؤلمنى أكثر فأكثر . ثم ان هذه الذكريات ،

ووحدتى ، ودهشة الاميرة الصغيرة ، كل ذلك كان يبدو لى أنه رتب خصيصا ليجرحنى ، ليدمى قلبى ، كنت أرتعش من اخمص قدمى الى قمة رأسى ، واختنقت بدموعى .

ـ اذن فأنت سعيدة بوجودك فى بيتنا .

لم أجب .

ـ وهل كان لك ملابس جميلة ؟

ـ لا .

ـ كانت ملابسك بشعة ؟

ـ نعم .

ـ لقد رأيت فستانك .

فما أن سمعت هـذا حتى رأيتنى أنهض من مكانى تحت تأثير احساس غريب ، وأقول :

ـ لماذا تسألينني اذن كل هذه الاسئلة ؟

ثم أضفت وقد احمر وجهى حنقا :

ـ لماذا تستجوبيننى هكذا ؟ لماذا تسخرين منى ؟

وتخضب وجه الاميرة بحمرة قانية ، ونهضت من مكانها هى الاخرى ، الا أنها لم تلبث أن سيطرت على انفعالها ، وقالت :

ـ كلا لست أسخر منك . وانما أردت أن أعرف هل كان أبواك حقا فقيرين .

فقلت وأنا أبكى ألما :

ـ لماذا تسألينني عن أبى وأمى ؟ لماذا تسألينني عنهما على

هذا النحو ؟ فيم أساءا اليك ، يا كاتيا ؟

واضطربت كاتيا اضطرابا شديدا ، ولم تعرف بم تجيب . وفى هذه اللحظة دخل الامير .

فلما رآنى أبكى ، قال :

ـ ماذا بك يا نيتوتشكا ؟

ثم التفت الى كاتيا ،وكانت بلون الجمر احمرارا ، وكرر على سؤاله :

ـ ماذا بك ؟ ماذا هنالك ؟ لماذا اختصمتما يانيتوتشكا ؟ فيم تشاجرتما ؟

ولكننى لم أكن أسطيع جوابا ، ورأيتنى أرتمى على يده أقبلها باكية .

ـ كاتيا ، لاتكذبى . قولى ماذا جرى !

ولم تكن كاتيا تعرف الكذب فقالت :

ـ قلت لها اننى رأيت فستانها الردىء الذى كانت تلبسه يوم كانت تعيش مع أبيها وأمها .

ـ من أراك الفستان ؟ من ذا الذى سمح لنفسه بأن يريك اياه ؟

فأجابت كاتيا بلهجة جازمة :

ـ رأيته بنفسى ، لم يرنيه أحد .

ـ حسن ، حسن . لاتريدين أن تشى بأحد . أنا أعرفك . أكملى كلامك .

ـ أخذت تبكى وسألتنى لماذا أسخر من أبيها ومن أمها .

ـ اذن فقد سخرت منهما .

لئن لم تسخر كاتيا من أبوى ، فقد كان ذلك فى نيتهـا قطعا . كما شعرت .

لهذا لم تجب على سؤال أبيها بكلمة ، ومعنى صمتها أنها تقر بخطئها . فقال لها الامير مشيرا الى :

ـ ستعتذرين لها حالا .

الا أن الاميرة الصغيرة ، وقد امتقع لونهـا ، لم تقم بأية حركة . فقال الامير :

ـ اننى أنتظر .

فما كان منها الا أن صرخت فجأة ، وقد التمعت عيناها بالشر ، وضربت برجلها الارض :

ـ كلا . لا أريد . لا أريد . لا أريد أن أعتذر لها ، يابابا . اننى لا أحبها . ولا أحب أن أبقى معها بعد الآن . ليس ذنبى أنها تظل تبكى طوال النهار . لا أريد . لا أريد !

ـ تعالى معى .

قال الامير ذلك ، ثم أخذ يدها ، وقادها نحو حجرته . والتفت الى قائلا :

ـ اصعدى ، يانيتوتشكا .

وددت لو أرتمى على الامير أطلب اليه أن يغفر لكاتيا ، الا أنه كرر أمره بلهجة صارمة ، فصعدت الى الجناح الاعلى من المنزل ، وأنا أشبه بالميتة . فما أن بلغت غرفتنا حتى سقطت على « الديوان » مخفية وجهى بين ذراعى . وأخذت أعد

الدقائق . كنت أنتظر كاتيا بفارغ صبر ، لأرتمى على قدميها. وأخيرا عادت كاتيا . ولكنها مرت بجانبى دون أن تقول كلمة واحدة ، ومضت الى ركن من أركان الغرفة جلست فيه .

كانت عيناها حمراوين ، وكان خداها مبللين بالدموع . فما أن رأيتها على هذه الحال حتى خارت قواى وفقدت كل شجاعة ، واخذت أنظر اليها فى رعب لم أستطع من فرطه أن أتحرك .

واتهمت نفسى بكل قواى ، وبكل قواى جهدت أن أقنع نفسى بأننى وحدى المذنبة . وهممت ، ألف مرة ، أن أقترب من كاتيا ، ولكننى كنت أتوقف خشية أن تسىء استقبالى .

وفى مساء اليوم التالى لاحت كاتيا أكثر مرحا ، وطفقت تطارد عجلتها فى الغرفة ، ولكنها لم تلبث أن تركت لعبها ، وعادت تجلس فى ركنها وحيدة . وقبل أن تمضى الى سريرها بلحظة واحدة ، التفتت فجأة الى ، بل تقدمت نحوى خطوتين ، وانفرجت شفتاها تريد أن تكلمنى ، الا أنها توقفت فجأة ، وأشاحت بوجهها عنى ، ومضت الى سريرها .

وانقضى على هذا يوم آخر ، واستغربت مدام ليوتار حالة كاتيا ، وبدا لها أن تسألها : ماذا بها ؟ هل هى مريضة حتى تغدو هادئة كل هذا الهدوء ؟ فأجابتها كاتيا ببضع كلمات ، ثم تناولت كرتها الطائرة . ولكن ما أن انصرفت مدام ليوتار حتى انفجرت باكية ، وهربت من الغرفة ، بعيدة عن أنظارى . وأخيرا حزمت كاتيا أمرها . وهاهى ذات مساء ، بعد مشاجرتنا بثلاثة أيام ، تصل الى غرفتنا على حين غرة ،

وتقترب منى خجلة ، وتقول :

ـ أمرنى بابا أن اعتذر لك . هل تريدين أن تصفحى عنى ؟

وأمسكت كاتيا بكلتا يدى ، فقلت لها ، وأنا ألهث من شدة الانفعال :

ـ نعم ، نعم .

ـ وأمرنى بابا بأن أقبلك . هل تريدين أن تقبلينى !

وكان جوابى على هذا انى أخذت أقبل يديها وأغرقهما بالدموع . وحين رفعت بصرى الى كاتيا ، لاحظت أنها لم تكن فى حالتها المعتادة : ان عينيها مبللتان بالدموع ، وان شفتيها لترتجفان ، ألاانها سرعان ماكبتت انفعالها ، وعادت الابتسامة فجأة الى ثغرها .

وقالت فى هدوء ، كأنما هى تحدث نفسها :

ـ سأمضى أقول لبابا اننى اعتذرت لك واننى قبلتك .

وأردفت ، بعد لحظة من الصمت :

ـ منذ ثلاثة أيام لم أره . لقد منعنى من المجىء اليه قبل أن أنفذ أمره .

ثم نزلت الى لقاء أبيها ساهمة وجلة .

وما انقضت على ذلك ساعة حتى دوى فى البيت ، فجأة ، الصراخ والصخب والضحك وعواء «فالستاف» . وسمعت شيئا يتدحرج ويتحطم . وطارت كتب الى الارض . وانطلقت العجلة تدور من غرفة الى أخرى . ففهمت أن الصلح قد تم

بين الاب وابنته ، ووثب قلبى من مكانه فرحا بذلك .

الا أن كاتيا لم تقترب منى ، وكان واضحا أنها تجهد أن لا تكلمنى . على أنها كانت تستغرب أمرى استغرابا شديدا ، وتتحرق شوقا الى فهمى ، وكان ذلك يربكنى ويؤلمنى . أصبح جلوسها أمامى ، متفرسة ، يزداد يوما بعد يوم . وأصبحت الملاحظات التى تبديها بصددى أكثر سذاجة مما كانت ! ان الشىء الذى لم تستطع أن تفهمه هذه الطفلة الرقيقة التى كان كل من فى البيت يدللها ، ويعبدها ، ويحتضنها ككنز جميل ، هو أنها لقيتنى فى طريقها عدة مرات فى وقت لم تكن تحرص فيه على أن ترانى أبدا . على أنه كان لها قلب صغير رائع يعرف بغريزته ، دوما ، كيف يجد الطريق القويم . كان أبوها أكثر الناس تأثيرا فيها ، وكانت هى تحبه حبا عظيما ، كما كانت أمها تحبها حبا جنونيا . غير أنها كانت تعاملها فى قسوة شديدة . ولقد ورثت كاتيا عن أمها الزهو والكبرياء والعناد وقوة الارادة . الا أن هذا لم يكن يمنعها من احتمال جميع نزوات أمها التى تبلغ أحيانا حد الاستبداد والتعذيب الروحى . وكانت الاميرة الأم تفهم التربية فهما غريبا : كانت تربيتها لكاتيا مزيجا عجيبا من دلال لاحد له ومن قسوة لا يشفى لها غليل ! .. فما كان مسموحا به أمس ، يصبح اليوم ممنوعا .. وهكذا كان الشعور بالعدل يفسد لدى هذه الطفلة بلا انقطاع . على أننى سأعود الى هذا فيما بعد . وانما أحب أن أذكر الآن أن كاتيا عرفت كيف

تنظم علاقتها بأبويها : أما مع أبيها فكانت تبقى على طبيعتها حرة منطلقة لا تلف ولا تدور . وأما مع أمها فكانت منطوية على نفسها ، حذرة ، مطواعة . غير أن هذه الطاعة لم تكن تجرى على سجيتها صادقة منطلقة ، وانما كانت مبدأ وخطة . وسأشرح هذا أيضا فيما بعد . على أنه لا بد من القول – وذلك أمر يشرف كاتيا – انها انتهت أخيرا الى فهم أمها : فلئن كانت تطيعها ، فلأنها شعرت شعورا قويا بما تكنه لها أمها من حب لاحد له ، من حب يبلغ أحيانا حد الهوى المرضى ! .. لقد كانت الاميرة الصغيرة التى لا يعوزها نبل النفس تحسب حساب هذه الناحية . الا أن هذا الحساب ، وأأسفاه ، لم يسعف رأسها الصغير ، فيما بعد ، الا قليلا .

وكنت أنا لاأفهم ماذا بنفسى . كان كيانى يجيش باحساس جديد لا سبيل الى فهمه ، ولست أبالغ اذا قلت أن ذلك كان يعذبنى كثيرا . والافضل أن أعترف بأن عاطفتى نحو كاتيا كانت هى العشق .. اغفروا لى استعمال هذه الكلمة . نعم كانت هى العشق بعينه ، بدموعه وأفراحه ، العشق الهائم الجامح . **ما الذى كان يجذبنى اليها ؟ لماذا نشأ فى نفسى هذا الحب ؟ لقد بدأ من النظرة الأولى ، لقد اهتزت جميع عواطفى اهتزازا لذيذا حين رأيت ، فجأة ، هذه البنية الجميلة جمال الملائكة** . كل شىء فيها جميل ، ما من عيب من عيوبها أصيل فيها ؛ جميع عيوبها دخيلة عليها ، لاتنفك تصطرع مع نفسها الأصيلة . كل شىء فيها يلتمع برجاء

مشرق ، كل شيء فيها يبشر بمستقبل رائع ..

.. ولم أكن أحبها وحدى . كان كل انسان يحبها . كان يتفق لنا أن نخرج فى نحو الساعة الثالثة فى نزهة ، فما أن تقع علينا أبصار المارة حتى يتوقفوا فى أماكنهم متجمدين . وكثيرا ما كانت صرخات الاعجاب تنطلق وراء هذه الصبية السعيدة متلاحقة : « لقد خلقت للسعادة ، وهى تعيش لها .. » ذلك كان لسان حال كل من يراها . أما أنا فلعل الاحساس الجمالى هو الذى أثر فى قبل كل شيء آخر . لعل الشعور بالجمال هو الذى استيقظ فى نفسى فى تلك اللحظة ، فما ينبغى أن نبحث عن غيره علة لحبى لكاتيا .

.. على أن آفتها الاساسية كانت هى الزهو .. هذا الزهو الذى يدفع بصاحبه دفعا الى الرجوع الى طبيعته الخاصة ، ويجعله بذلك مقاتلا . كان هذا الزهو يتجلى حتى فى سذاجات صبيانية ، ويختلط بالانانية اختلاطا يبلغ من القوة أن أى تناقض ، مهما تكن صورته ، كان يدهشها أكثر مما كان يسيئها أو يغضبها . كانت لاتستطيع أن تقبل أن يتم أمر من الامور لم ترده . **ومع ذلك كان احساسها بالعدل يسيطر على كل شيء . فما أن تدرك أنها كانت على خطأ ، حتى تذعن لتأنيب ضميرها دون مواربة أو تعلل . ولئن ساء سلوكها معى حتى تلك اللحظة ، فاننى أسند ذلك الى نفور كانت تشعر به نحوى ، دون أن تستطيع له دفعا !** .. كان سلوكها هذا امرا لا مفر منه . كانت تستسلم لاندفاعاتها

فى كثير من الجموح ، وكان لا بد لها ، دوما ، من أمثلة ومن تجارب حتى تعود الى الطريق القويم . ورغم أن نتائج كل ما تقوم به من أعمال كانت نتائج جميلة وصادقة ، الا أنها لم تكن تصل الى هذه النتائج الجميلة الصادقة الا بعد انحرافات مستمرة ، وأخطاء متواصلة ..

ولم تلبث كاتيا أن شبعت من ملاحظتى والتفرس فى ، وقررت أخيرا أن تدعنى وشأنى .. وأصبح سلوكها سلوك من لايشعر بوجودى ، فما من كلمة توجهها الى ، الا فيما مست اليه ضرورة .. وأبعدتنى عن ألعابها ، ولكن بدون قسوة . أقصتنى عنها ببراعة ، حتى لكأن هذا الاقصاء تم بارادتى !

وكانت الدروس تسير فى مجراها . ولكننى فقدت شرف الاساءة الى كبريائها ، حين كانوا يضربون بى مثلا على الذكاء والرقة ، مع أن هذه الكبرياء كانت من سرعة التأثر بحيث نه كان لكلبنا ، « سير جون فالستاف » ، سلطان كبير عليها . كان فالستاف ذا مزاج بارد ، الا أنه كان شريرا كنمر . فاذا اهتاج ، أصبح وحشا كاسرا ، فلم تستطع كاتيا أن تملك زمامه . وأكثر من ذلك أنه كان لايحب أحدا . الا أن عدوه الاول ، عدوه الطبيعى ، كان هو الاميرة العجوز من غير ريب — وسوف تأتى قصة ذلك فى حينها — اما كاتيا المتكبرة فكانت تستعمل كل الوسائل للتغلب على عداوة فالستاف . كانت لا تطيق أن يكون هذا الحيوان الكائن الحى الوحيد الذى

يستطيع ، فى هذا المنزل ، أن يتجاهل سلطتها وقوتها ، فلا يخضع لها ، لا يحبها !.. لذلك قررت أن تهاجم الكلب .
ان كاتيا تريد الآن أن تفرض سيطرتها على هذا الحيوان ، ان كيف يجرؤ فالستاف أن يقاومها ؟

.. غير أن الكلب العاصى لم يخضع .. ففى ذات مرة ، بعد العشاء ، بينما كنا جالسين فى القاعة الكبرى ، فى الطابق الاسفل ، جاء الكلب واستقر فى وسط القاعة ، ليستمتع بقيلولته . عندئذ قررت الاميرة الصغيرة أن تشرع فى تنفيذ خطتها . فتركت لعبها ، واقتربت منه ، حذرة ، على رؤوس الأصابع ، وهى تناديه بارق الاسماء ، وتدعوه اليها بألطف الحركات والاشارات . الا أن « فالستاف » كشر عن أنيابه الفظيعة ، من بعد ، فتوقفت الاميرة الصغيرة . ان ما كانت تريده هو أن تأتى اليه ، أن تداعبه ، أن تحمله على اللحاق بها ، وهذا ما لم يكن يسمح به لأحد غير الاميرة الأم ، التى كان أثيرا لديها .

وكانت الخطة عسيرة ، تقتضى كثيرا من البراعة ، بل تشتمل على خطر كبير ، لأن فالستاف لن يزعجه أن يعض يدها ، ولا أن يمزق يدها اربا ، اذا بدا له ذلك . انه قوى ، كالدب ..

وكنت أرقب محاولة كاتيا ، قلقة ، خائفة . الا أن صرفها عن فكرة بدت لها لم يكن بالامر السهل . أن الأنياب التى كشر عنها فالستاف لم تستطع أن تحولها عن عزمها ، فلما ادركت أنها لا تستطيع أن تقترب من عدوها على خط

مستقيم ، أخذت تدورحوله حذره ، ولم يتحرك فالستاف. وبعد أن أنهت دورتها الاولى ، دارت دورة أضيق ، وما زالت تضيق دورتها حتى أصبحت من فالستاف على المسافة التى يراها معقولة ، فلما همت أن تتجاوزها كشر عن أنيابه مرة أخرى ، فما كان من الاميرة الا أن ضربت الارض بقدميها ، وابتعدت ساخطة ، وجلست على « الديوان » تفكر .

وما هى الا عشر دقائق حتى اهتدت الى وسيلة للاغراء جديدة : فاذا هى تخرج من الغرفة ثم تعود وفى يدها مكسرات وحلوى . لقد غيرت سلاحها . الا أن فالستاف لم يبال بهذا الاغراء الجديد ، ربما لأنه لم يكن جوعان ، حتى أنه لم ينظر الى قطعة الحلوى التى رمتها اليه . ولكن حين دخلت الاميرة الصغيرة حدود الدائرة التى يعدها أرضه ، أظهر الكلب معارضة أبلغ وأقوى من معارضته فى المرة الاولى ، فرفع رأسه ، وكشر عن أنيابه ، وأخذ يهمهم ، وهم بحركة تدل على أنه مستعد لأن يثب من مكانه . فالتهب وجه كاتيا غضبا ، ورمت قطعة الحلوى التى كانت تمسكها ، وعادت تجلس فى مكانها . .

انها مضطربة أشد الاضطراب ، ان خديها كالجمر احمرارا ، بل ان دموعا لتتفجر من عينيها . ولما رأت أننى أنظر اليها ، غلى الدم فى رأسها ، فاذا هى تثب من مكانها فجأة فى اتجاه الحيوان الكاسر !

ولعل فالستاف قد تجمد فى هذه المرة من الدهشة .

فترك عدوته تجتاز الحدود ، ولم يحى البنت الطائشة بهمهة مخيفة الا حين رآها قريبة جدا منه ، فتوقفت كاتيا ثانية أو أقل من ثانية ، ثم تابعت سيرها بخطى ثابتة .

تجمد الدم فى عروقى من شدة الذعر . كانت الاميرة الصغيرة فى حالة من الهياج ما رأيتها فى مثلها يوما . لقد كان اليقين من الانتصار يلهب عينيها . لم تحول نظرها عن الكلب الكاسر وهو يرمقها بنظرات غاضبة ، ولم ترتجف أبدا أمام أنيابه المهددة .. بينما انتصب الكلب . وانطلق من صدره الكثيث هدير رهيب ، فقلت فى نفسى : لن تنقضى دقيقة واحدة الا ويمزقها اربا ! .. الا أن الاميرة الصغيرة وضعت يدها الصغيرة عليه فجأة فى اعتزاز ، وداعبت ظهره ثلاث مرات وقد بدت عليها خيلاء الظفر . وظهر على الكلب نوع من التردد . كانت تلك أسوأ اللحظات . لكن الكلب لم يلبث أن نهض متثاقلا ، وتمطى ، ولعله قال فى نفسه أنه لايليق به أن يقتتل مع طفلة ، ثم ترك الفرفة فى هدوء ووقار . وبقيت الاميرة الصغيرة سيدة المكان ، فرمقتنى بنظرة خاصة ، نظرة مفعمة بالنشوة ، نظرة من أسكرها الشعور بالنصر . وكنت أنا شاحبة شحوبا كبيرا . ولاحظت هى ذلك فابتسمت . الا أن وجنتيها أخذتا تشحبان ، وما استطاعت أن تعود الى «الديوان» الا فى كثير من العناء . فتهالكت عليه فاقدة الوعى تقريبا .

منذ ذلك اليوم أصبح هواى لا يعرف الحدود . أصبحت

أخاف على كاتيا خوفا شديدا ، وأصبح الحزن يحرقنى حرقا . ألف مرة أوشكت أن أرتمى على عنقها وسمرنى الوجل فى مكانى . وكنت أحاول أن أتحاشاها حتى لا ترى انفعالى ، فاذا اتفق أن دخلت الغرفة التى كنت أظن أننى مختبئة فيها ، أخذ قلبى يخفق خفقانا قويا حتى لأرى الأشياء أمامى تدور ! .. وأعتقد أن هذه البنية الشيطانة لاحظت الأمر ، لأنها ظلت خلال يومين بادية التململ . الا أنها لم تلبث أن اعتادت على ذلك ..

.. وانقضى شهر . كنت أتعذب فى سرى . ويجب أن أذكر أننا ، أنا وكاتيا ، لم نتبادل خلال هذه المدة كلها خمس كلمات ! .. الا اننى أدركت شيئا فشيئا ، من بعض القرائن الصغيرة ، ان سلوك كاتيا نحوى لا يمليه عليها أنها نسيتنى أو أنها لا تحفل بأمرى ، وانما يمليه عليها قرار ارادى ، كأنما هى آلت على نفسها أن لاتدعنى أتجاوز بعض الحدود ، ومع ذلك بلغت من العذاب اننى أصبحت لاأستطيع أن أنام ، وأصبحت لاأستطيع أن أخفى انفعالى حتى عن مدام ليوتار . أصبح حبى لكاتيا مرضا !.. أذكر اننى ذات مرة سرقت أحد مناديلها خلسة ، وفى مرة أخرى سرقت أحد أشرطة شعرها ، وقضيت ليالى برمتها أقبلهما باكية ..!

انتهى الجـــزء الأول

ويليه الجزء الثانى والأخير

كتابى

يبدأ عامه الجديد بالعدد القادم (٩٧) حاملا اليك باقة ممتازة من الملخصات لمجموعة من أروع الكتب العالمية ، وفى مقدمتها كتاب العام :

رسائل فولتير الغرامية

الى .. من ؟

الكتاب الذى يكشف الستار عن ناحية كانت مجهولة فى حياة فيلسوف الثورة والحرية ..

حصل عليه المحرر من مؤلفه (شخصيا) عند زيارة المحرر لمعهد فولتير فى مدينة (جنيف) ، وقد أهداه المؤلف خصيصا الى قراء (كتابى) فى العالم العربى ..

طالعه ، مع عدد من أمتع الكتب الأخرى فى العدد القادم – ٩٧ – من كتابى .

عدد ممتاز – أوص البائع على نسختك من الآن .



أسس لأولادك هذه المكتبة

إن "مطبوعات كتابي" التى تقدم لك ولأفراد أسرتك ترجمة عربية دقيقة كاملة لأمهات الكتب العالمية التى تؤلف تراث الإنسانية الخالد على مر العصور، تكفل لابنك - أو ابنتك - أن يشب فيجد فى متناوله مكتبة عربية زاخرة بكتب الأدب المنتقاة، المترجمة عن أساطين المؤلفين فى شتى بلاد العالم، والتى تضم عصارة تجاربهم ومشاعرهم وانفعالاتهم.. وهكذا سوف يتاح لابنك أن يقرأ "تولستوى" و"جيته" و"ديكنز" و"ڤولتير" و"دانتى"، منذ نعومة أظفاره، بينما حرمت أنت فى شبابك الباكر من هذه المتعة.. فعندما أتقنت اللغات الأجنبية كنت قد بلغت سن العمل والزواج والمسئوليات، فضاعت منك فرصة الفراغ الطويل المنشود.. إلى الأبد!

مطبوعات كتابي

يصدرها: حلمى مراد

الترجمة الكاملة الأمينة لشوامخ الكتب العالمي